مقالات

د. أحمد خالد توفيق

زغازيغ

...... دار ليلى ......


تررررن!!

يحكي د. جلال أمين أن أباه المفكر الإسلامي الشهير أحمد أمين سمع للمرة الأولى عن دخول اختراع اسمه الهاتف إلى مصر، فسأل الناس عن نفعه.. قالوا له: حتى إذا ما احتاج لك أحد قرع الجرس واتصل بك. قال لهم: هكذا خادمي.. أحتاج له فأقرع الجرس!.. وظل يرفض تركيب جهاز هاتف لفترة طويلة.

ما زلت أجد كلام الرجل عبقريًا بعيد النظر فعلاً، ولا أخص بكلامي الهاتف الجوال فهو اختراع كريه آخر أقرب وصف له أنه عقرب في جيبك لا تعرف متى يلدغك. جرب أن تتعطل سيارتك في الصحراء، أو يحيط بك ستة من المسلحين ينوون ذبحك، أو تصاب – لا سمح الله – بنوبة قلبية في مصعد معطل في بناية تحترق، ولسوف تكتشف أن الجوال لا يعمل أبدًا عندما تتوقف حياتك عليه..

الجوال كارثة كونية، لكني أتحدث هنا عن الهاتف العادي الذي هو اقتحام وقح دائم لخصوصيتك وأفكارك.. أنا أكتب هذا المقال الآن وأنوي أن أرسله للمجلة.. لا أعرف كيف

سينتهي لأن الفكرة ما زالت ذائبة في عقلي لم تتبلور بعد.. سوف.. ترررررن!.. أوقع دستة من الأقلام على الأرض كي ألحق بالسماعة.. هنا يأتي صوت من يقول لي:

ـ"الحاجة عفاف.. لقد عاودها الدوار بعد ما تعاطت تلك الأقراص التي وصفتها لها.. تناولت قرصًا فصرخت وسقطت على الأرض والزبد يخرج من شدقيها.. إنها تموت الآن.. تعال حالاً.."

لا تنس أنني طبيب ولم أعتزل المهنة. طبعًا لا تحاول فهم كيف تتسبب بعض أقراص فيتامين (ب) في هذا كله، وكيف يقتل القرص وهو ما زال في فم المريضة كأنه سيانيد مما ينتحر به الجواسيس قبل الاستجواب. المهم أنني أمضي مع الرجل نصف ساعة حتى أدرك أخيرًا أن الحاجة (عفاف) بخير وأنها فقط تريد أن تعيد الكشف مجانًا..

عم كنا نتكلم؟.. عن الـ... ترررررن!..

آلو!.. هناك فتاة حزينة تقول لي في حزم: "عندما حدثتك عن قصتي مع عماد لم أتوقع أن تخبر نرمين بذلك.. أنت تعرف أن الشرنوبي يبحث عن أية زلة لي كي يخبر هويدا.."

طبعًا لا أعرف حرفًا عن عماد ونرمين والشرنوبي الوغد الذي ينتظر زلة ليخبر هويدا.. أمضي ربع ساعة حتى أفهم وأعتذر عن شيء لا أذكر حرفًا منه. الآن نكمل المقال.. كنت أتحدث عن الفضائيات على ما أذكر.. لا.. كنت سأتحدث عن الهاتف المزعج الذي... ترررررررن!

آلو.. نحن جمعية المعلومات الشبابية المستقبلية المقننة لما بعد الحداثة.. كنا نود معرفة رأيك في المعلومات الشبابية المستقبلية المقننة لما بعد الحداثة.. لا أعرف شيئًا عن الموضوع يا سيدي.. يجب أن تطلبوا رأي من له باع في المعلومات الشبابية المستقبلية المقننة لما بعد الحداثة..

عم كنا نتكلم؟.. تررررن؟.. صوت طفل.. أنا هيثم يا عمو.. هل محمد عندك؟.. أنادي ابني كي يرد وأتمنى ان

يستغرق وقتًا طويلاً لأن هذه الطريقة الوحيدة كي يخرس هذا الوحش..

ترررن!.. متى وضع ابني السماعة؟.. أمد يدي فأسقط باقي لفافة التبغ المشتعلة على سروالي فأهب صارخًا بحثًا عن الزهرة المحترقة التي هي في موضع ما من سروالي الآن.. أين؟.. أتواثب كالبرغوث في الغرفة ثم أرفع السماعة..

آلو!.. صوت رجل ظريف يقول لي: "خمن من أنا؟.. أحقًا لا تعرف.. لا.. لا.. أنا فعلاً متضايق.. كنت أتصور أي شيء إلا أن تنساني.."

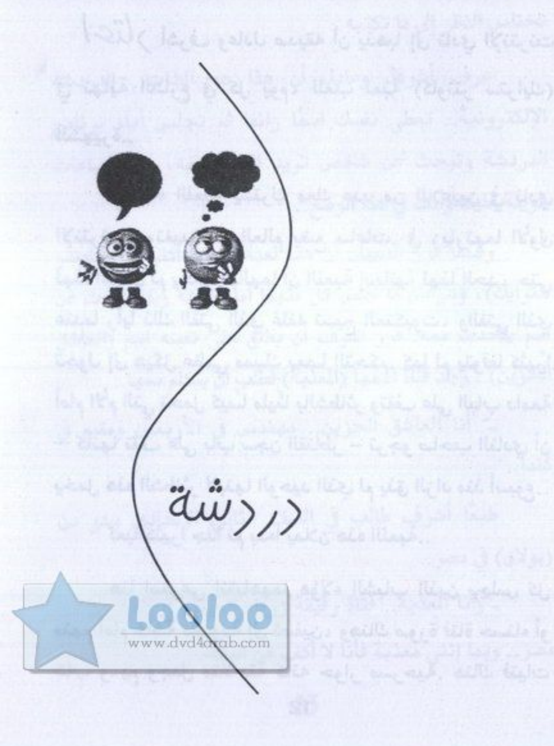
ـ"سيدي.. هلا قلت من أنت وأرحتني؟"

ـ"لا . لا.. ليس بهذه السهولة.. فكر قليلاً!"

أخيرًا وبعد نصف ساعة يخبرني أنه سيد البهنساوي..

ـ"ومن هو سيد البهنساوي؟"

يطقطق بشفتيه مستنكرًا.. تؤ.. تؤ.. بهذه السرعة نسيت؟.. في تلك الندوة منذ ثلاثة أعوام قابلتك مع علاء



البنهاوي وقلت لك إنني قريب محسن.. من هو محسن ومن هو علاء؟.. أحتاج لربع ساعة كي أتذكر..

أضع السماعة وأفصل السلك نهائيًا.. أمضي ساعتين من السلام حتى أفاجأ بأن زوجتي تخبرني أن أختي كلمتها على الجوال.. إنها تحاول الاتصال بي منذ ساعتين لأمر طارئ.. يا أخي حرام عليك.. هل يوجد عمل في الدنيا أهم من أختك؟..

في النهاية أعيد توصيل السلك وأحاول تذكر ما كنت أفعله، عندما أتلقى مكالمة أخرى من رجل يخبرني أن الحاجة (عفاف) تزداد سوءًا.. يبدو أن عندها حساسية قاتلة من فيتامين (ب)..

عم كنت أتكلم؟.. لقد نسيت.. آه.. هل تعرف لماذا صار الجاحظ هو الجاحظ والمتنبي هو المتنبي، وتشارلز ديكنز هو تشارلز ديكنز؟.. كان الأمر سهلاً بالنسبة لهم لأنه لم يكن في بيوتهم هاتف!

اعتاد أشرف وعادل صديقه أن يذهبا إلى نادي الإنترنت في نهاية الشارع في كل يوم، للعب لعبة (كاونتر سترايك) الشهيرة..

في هذه اللعبة يشترك معك عدد من اللاعبين في نادي الإنترنت، وتغيب عن العالم بضع ساعات. في زيارتهما الأولى لهذا النادي لم يخطر ببالهما أن اللعبة إدمانية لهذا الحد، حتى عندما رأيا ذلك الفتى الذي غلفه نسيج العنكبوت، والفتى الذي تحول إلى هيكل عظمي ممسك بعصا التحكم. كما لم يتوقفا كثيرًا أمام الأم التي تحمل كيسًا مليئًا بالشطائر وتقف على الباب دامعة – كأنها تقف على باب سجن القناطر – ترجو صاحب النادي أن يحمل هذه الشطائر لابنها الوحيد الذي لم يذق الزاد منذ أسبوع..

لعبا كثيرًا جدًا ثم بدءا يملان هذه اللعبة..

هنا استرعى انتباههما هؤلاء الشباب الذين يجلس كل منهم أمام شاشة مقسومة إلى نصفين، وهناك صورة فتاة حسناء أو شاب وسيم وجمل متلاحقة كأنه حوار مسرحية. هناك فتيات

تجلس الواحدة منهن أمام شاشة، لكن هناك ألف عين فضولية تختلس النظر إلى ما تكتبه..

عرف أشرف وعادل أن هذا هو الشات.. الدردشة الإلكترونية.. تعطي نفسك اسمًا زائفًا ثم تجلس أمام برنامج الدردشة وتبحث عن شخص تريد الكلام معه، وتمر ساعات طويلة عليك وأنت في هذا الوضع..

وهكذا قرر الصبيان أن هذه لعبة مسلية أكثر من (كاونتر سترايك)، وسرعان ما جلس كل منهما أمام شاشة وبدأ يبحث عن اسم يتحدث معه. قرر أشرف أن يطلق على نفسه اسم (العاشق الحزين).. وجد فتاة اسمها (المعذبة) فطلب أن يتكلم معها..

-" أنا العاشق الحزين.. مهندس في الأربعين ومقيم في كندا.."

طبعًا أشرف طالب في الصف الثاني الإعدادي وهو من (بولاق) في مصر..

-"وأنا المعذبة.. فتاة رقيقة زرقاء العينين في العشرين من مصر.. وبما إنني معذبة فأنا لا أكف عن البكاء.."

وهكذا ولدت صداقة حميمة بين الاثنين.. الصداقة تحولت خلال نصف ساعة إلى قصة حب.. المهندس الحزين الذي لم يلق قصة حب حياته وجدها أخيرًا.. وهي التي لم تلق رجلاً صادقًا حتى اليوم وجدته الآن..

ـ"هات عنيك تسرح في دنيتهم عنيا"

ـ"الموج الأزرق في عينيك يناديني حتى الأعمق"

هنا مال عادل على أشرف يخبره أن موعد درس العلوم قد جاء، فانتفض أشرف مذعورًا وكتب للفتاة:

ـ"آسف.. هناك اجتماع لمجلس الإدارة مع الخبراء اليابانيين حالاً.. يجب أن أتركك يا أغلى الناس"

هنا كتبت الفتاة:

ـ"أما أنا فقد حان موعد بكائي اليومي.. لا تنسني يا أعز الناس واذكرني عندما يكتمل قرص القمر وعندما يرحل الخبراء اليابانيون"

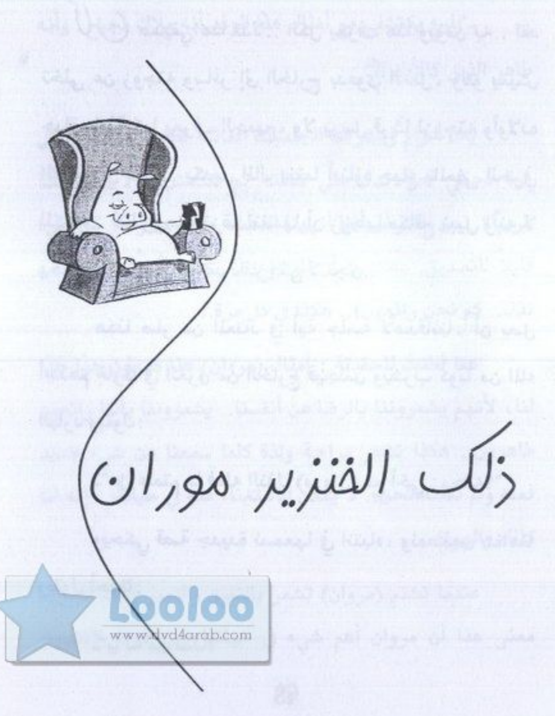
أغلق الصبيان جهازي الكمبيوتر ودفعا الأجرة، ثم غادرا المكان وهما يوشكان على الموت ضحكاً.. هذه لعبة مسلية أكثر من أية لعبة لعباها في حياتهما . قال أشرف لصاحبه وعيناه دامعتان من كثرة ما قهقه:

ـ"وجدت فتاة حمقاء.. أقنعتها أنني مهندس ثري في الأربعين أقيم في كندا وأنني لم أتزوج لأنني لم أجد فتاة تفهمني سواها!"

قال عادل وهو يمسك ببطنه التي آلمته من الضحك:

–"حمقاء!.. أما أنا فقد خدعت رجلاً أبله.. زعمت أنني فتاة مرهفة حساسة زرقاء العينين لا تكف عن قراءة الشعر والبكاء.. فتاة لم تجد قط رجلاً يفهمها أو يصدق معها.. "

وانفجر الصبيان ضحكاً وضربا كفيهما، وللحظة خطر لأشرف أن ما يقوله عادل يبدو مألوفًا إلى حد ما، ثم نسي الأمر كله.. المهم أنه سيكون هنا غدًا لينعم بالكلام مع تلك الفتاة الرقيقة الحزينة..



قال أشرف وهو يشير لرأسه في ذكاء:

ـ"من السهل أن تخدع أي واحد على شبكة الإنترنت لأنك لا تضمن أية معلومات تقال من أي نوع.."

قال (عادل):

ـ"لكننا ذكيان ومن الصعب أن يخدعنا أحد.."

ـ"أحسنت القول.. لا تنس موعدنا غدًا لنواصل المرح!!"

كان صديقي هذا نذلاً.. الكل يعرف هذا ويؤمن به.. لقد تخلى عن زوجته وسافر إلى الخارج بدعوى العمل، وهو يعيش حياة عابثة كما يعرف الجميع، ولا يرسل قرشًا لزوجته وأولاده المقيمين في مصر.. يكدس المال بينما أبناؤه جياع بالمعنى الحرفي للكلمة.. فقط زوجته تزعم لنفسها أن زوجها مكافح نبيل وأنه لا يخدعها.. لابد أن تعتقد ذلك حتى لا تجن..

هكذا صار من المعتاد في أية جلسة لأصدقائنا، أن يصل أحدهم غارقًا في العرق من الخارج فيجلس ويشرب كوبًا من الماء البارد ويقول:

-"هل علمتم ما فعله النذل (مروان) مع أخي زوجته؟"

ويحكي قصة جديدة نسمعها في انتباه، ونمصمص شفاهنا ويقول أحدنا:

-"يا له من نذل!"

ويقول آخر:

-"المرء يكتشف مع أمثال هذا الوغد أنه ملاك مجنح، وأنه طاهر الذيل كالأطفال"

بعد أعوام وعشرات الجلسات المماثلة فطنت إلى أننا في كل مرة نحكي قصة تدل على نذالته ثم نندهش.. ألا يبدو هذا غريبًا؟.. من المفترض أننا أنهينا الدهشة منذ زمن وصار كل شيء قابلاً للتصديق. دعك من أن الموضوع صار مملاً فعلاً.. (يا له من نذل.. كم نحن رائعون).. هكذا في كل مرة..

هنا فطنت للحقيقة : أمثال (مروان) هذا مهمون جدًا جدًا لنا، لأنهم يشعروننا بالرضا عن أنفسنا.. يشعروننا بأننا رائعون طاهرون.. هكذا نشعر براحة ولذة كلما سمعنا عن شيء جديد فعله ولم نفعله نحن.. لا يمكن الاستغناء عنه في حياتنا.. إنه لنا كالماء والهواء..

عندما تشتم (مروان) تشعر بالتفوق والتميز وأنك أفضل.. معنى هذا أن مروان أهم شيء في حياتنا ومن دونه لانتهينا

تمامًا.. إنه نموذج البطل الذي (يحب الناس أن يكرهوه) كما يقول الغربيون..

تذكرت قصة قديمة اسمها (ذلك الخنزير موران) للأديب العبقري (جي دي موباسان)، وتحكي عن غريب جاء إلى قرية فرنسية فوجد أن الناس جميعًا يشتمون (ذلك الخنزير موران).. يقولونها بعد كل وجبة وعند كل لقاء، ويشعرون بعدها برضا شديد.

عندما تحرى الأمر عرف أن ذلك الخنزير موران مجرد قروي بائس جاء للقرية منذ أعوام، فرأى فتاة جميلة من بناتها. فقد صوابه أمام الجمال وطبع قبلة مفاجئة على خدها.. النتيجة أن الفتاة صفعته، وبعد هذا ضربته القرية كلها وطردته، ومنذ ذلك الحين صار رمزًا للأوغاد في هذا العالم.. وصارت زيارة (الخنزير موران) للقرية تاريخًا يربطون به الأحداث..

يتعرف راوي القصة على الفتاة التي فقد (موران) صوابه معها، ويعجب بها كثيرًا.. ثم يقيم علاقة معها فترحب جدًا، لكنهما لا ينسيان أن يلعنا من وقت لآخر (ذلك الخنزير موران) الذي جلب العار للبلدة..

كل البلدة تمارس الخطيئة وتنافق وتكذب، لكنهم جميعًا لا ينسون أن يشتموا موران لأن هذا يشعرهم بأنهم أفضل!

تذكرت هذه القصة ونحن نتحدث عن (مروان) النذل.. وشعرنا بالتفوق وحمدنا الله على أننا لسنا هو..

لكن أحدنا قال متأملاً وهو يبرم شاربه:

-"لا أدري ما الذي يعجب البنات الغربيات فيه.. أنا أعتبر نفسي أوسم منه بمراحل"

بينما تذكر آخر أنه لم يعط زوجته نقودًا منذ أسبوع لأنها (قليلة الأدب وغير مطيعة). هكذا رحنا جميعًا نهنئه على حزمه وقوة شخصيته..

وقال أحدهم:

-"نعم.. نحن لسنا أزواجًا مخلصين ولا نعنى ببيوتنا كما يجب.. لكن مهما انحدر أحدنا فبوسعه أن يقول في فخر: أنا لم أصر نذلاً مثل.. مثل.."

قلت أنا من بين أسناني:

-"ذلك الخنزير موران"

هنا نظروا لي في حيرة وقالوا:

-"من؟"

قلت مصححًا بسرعة:

-"أعني ذلك الخنزير مروان"

مروان يشبه موران فعلاً.. كيف لم ألحظ هذا التشابه في حروف الاسمين إلا الآن؟..

فليحفظ لنا الله (مروان) من كل سوء ويبقيه لنا، حتى نظل معتقدين أننا على ما يرام وأنه لا بأس بنا!



أسماك الزينة كائنات عجيبة لا تجيد أي عمل في الدنيا سوى أن تموت. في الصباح تجد الحوض جميلاً أنيقًا والأسماك تسبح سعيدة راضية تلتهم الطعام وتلتقط الحصى.. عند الظهر تجد ثلاث أو أربع سمكات طافية على الماء وقد انتفخت وصارت جديرة بأفلام الرعب الحديثة، فتتغلب على تقززك وحزنك وتحمل هذه الجثث بالشبكة لتلقي بها في المرحاض، وعند المساء تكتشف أن الحوض لم يعد حوض سمك زينة بل هو وعاء زجاجي لحفظ الماء لا أكثر.

عندما ابتعت هذا الحوض قال لي بائع الحيوانات الأليفة في حكمة:

-"لا تطعم السمك لمدة ساعتين بعد وضعه في الماء لأنه يعاني نقص الأكسجين"

صحيح أنه كان يقول هذا وهو يحمل شبكة مليئة بالأسماك الميتة ليضعها في قفص القطط المنزلية التي يبيعها،

لكني قلت لنفسي إنه يعرف ما يقول. وعندما عدت له لأخبره أن معظم الأسماك ماتت سألني في شك:

-"هل أطعمت السمك على الفور؟"

فقلت لا.. هكذا هز رأسه متعجبًا من جهلي وأكد أن هذا هو الخطأ بالذات.. لابد من إطعام الأسماك فورًا لأنها تكون في حاجة إلى سعرات عندما تنقل لمياه جديدة. ابتعت منه بعض الأسماك ممتنًا لوجود خبراء في هذا العالم، وعدت لأملأ الحوض من جديد ولم أنس أن أضع للأسماك الطعام فورًا. عندما طفت الأسماك – وهو عنوان فيلم شهير لكاكويانس – عدت له لأفهم.. تنحنح بحكمة القرون كأن أجداده كانوا عمالقة البحار، وقال :

-"هل تضيء النور في الحوض طيلة الوقت؟"

-"نعم"

-"هذا هو السبب إذن.. لابد ألا يضاء الحوض أكثر من ثمان ساعات وإلا تكاثرت الطحالب"

هكذا عدت للبيت وانتزعت فيشة النور، وتحملت أن يتحول الحوض المضاء الجميل إلى كتلة سوداء كئيبة جاثمة في الظلام تذكرني بالتوابيت. على إنني عندما أعدت وضع الفيشة في القابس وجدت أربع أسماك تطفو على السطح وقد انتفخت وتشوهت. عدت للرجل العبقري أطلب رأيه فحك رأسه مستحضرًا حكمة القرون وسألني عن ظروف الإضاءة.. ثم عرف أنني أحمق أطفئ النور أكثر اليوم فقال ضاحكاً:

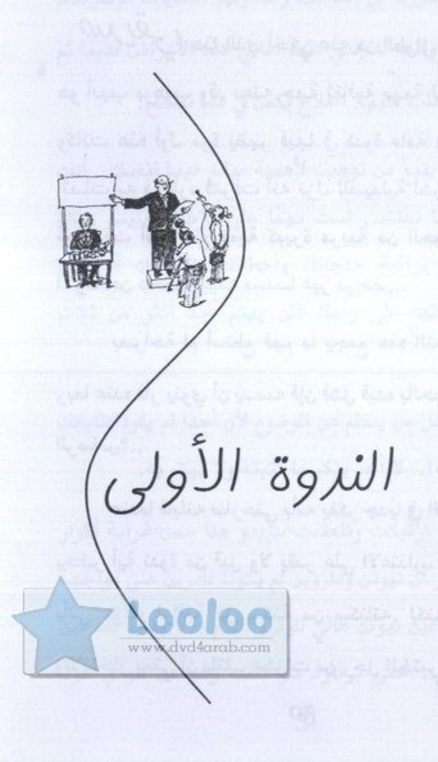
ـ"خطأ جسيم.. السمك كالنباتات يحتاج إلى النور.. هذه الأسماك تطفو قرب السطح ولا تنزل للقاع أبدًا.."

طبعًا كان السبيل الوحيد لعدم قتله هو أن أستعين بغيره.. وقابلت الكثيرين من هؤلاء الحكماء الذين ينصحونني بأن أضيف الكثير من الملح لمياه الحوض ومن ينصحني بألا أضع الملح أبدًا.. وهناك من يعطيني زجاجة صغيرة باهظة الثمن أسكب منها قطرات في الحوض، فإذا فعلت ومات السمك قال لي في جزع: لابد أنك وضعت الدواء ثم أطعمت السمك فورًا.. هذا خطأ..

الآن وقد صار الحوض جثة هامدة ملقاة على سطح البناية، يستخدمها القط كحمام أحيانًا، عرفت الحقيقة المروعة: لا أحد يعرف شيئًا على الإطلاق.. نحن محاطون بالذين يتظاهرون بالحكمة والعلم، وتكمن عبقريتهم في التملص من الأخطاء المحرجة . هناك تلك الزوجة الأمريكية التي قالت عن زوجها إنه خبير في سباق الخيول.. يخبرك قبل المباراة بالجواد الذي سيفوز ويخبرك بعد المباراة بسبب عدم فوز هذا الجواد! .

كل هذا يتلخص تحت عنوان كبير اسمه (الحكمة بأثر رجعي).

إن البورصة والمصارف تعج بهؤلاء العباقرة على كل حال.. أذكر أن قريبة لي وجدت أن الناس جميعًا في مصر يحولون نقودهم إلى دولارات لأن سعرها سيرتفع. هرعت إلى المصرف لتحول مبلغًا ضخمًا إلى دولارات، فقال لها مدير المصرف – وهو قريب لنا – في ذكاء وغموض: لا تفعلي.. سوف يرتفع سعر اليورو ولسوف تندمين. هكذا عادت لدارها سعيدة لأنها تعرف رجلاً حكيمًا كهذا.. بعد شهرين عادت للمصرف من جديد لتبتاع دولارات فلم تجد دولارًا واحدًا. نظر لها المدير لائمًا لبضع دقائق ثم قال:



-"ألم أنصحك منذ شهرين بأن تبتاعي دولارات؟.. ألم أقل لك إن سعر الدولار سيقفز للسماء فلم تصغي لي؟.. عليك أن تتحملي نتيجة عدم الإنصات لي إذن.."

لم تستطع أن تقول أي شيء أو تذكِّره بما قال.. كل هذا عبث مع شخص كهذا.. هكذا غادرت المصرف وقد عقد الغيظ لسانها..

إلا أنني عندما حكت لي القصة قلت إن عليها أن تحمد الله على وجود هؤلاء الخبراء في حياتنا، فلولاهم لضعنا منذ زمن سحيق.. دعك من كل سمك الزينة الذي كان سيطفو على السطح بسبب جهلنا!

صديقي هذا الذي أحكي عنه من الطراز الخجول جدًا..

هو أديب موهوب وقد دعته جهة ثقافية مهمة لندوة لتكريمه، وكانت هذه أول مرة يظهر فيها في ندوة عامة في قاعة كبرى. اتصلت به في داره فعرفت أنه نزل للصيدلية لشراء سم فئران.. ثم عرفت أنه ابتاع كمية كبيرة مريبة من الحبال ويبحث في الأزقة عن شخص يبيعه مسدسًا غير مرخص..

بصراحة لم أستطع فهم ما يجمع هذه النشاطات جميعًا. ربما عنده فأر ينوي أن يسممه فإن فشل قيده بالحبال وأطلق عليه الرصاص؟..

عندما قابلته صارحني بأنه يفكر جديًا في الانتحار لأنه لم يحضر أية ندوة من قبل ولا يقدر على الاعتذار، ولا يتحمل أن يأتي هؤلاء لمراقبة كل سكنة من سكناته. لكنه خجول جدًا والانتحار يعني أن يلتف عشرات من رجل المختبر الجنائي حول

جثته وتظهر صورته في الصحف وتتداولها منتديات الإنترنت.

ضحكت كثيرًا وقلت له إنني كنت أعاني هذه الأعراض قديمًا ثم عرفت كيف أتغلب عليها. العلاج يكمن في عدة نصائح:

الخجل ينبع من توهمك لأهمية مبالغ فيها لنفسك.. أنت لست مهمًا كما تعتقد.. لست مهمًا على الإطلاق وليس هناك شخص متفرغ لمراقبة خلجاتك وأخطائك.. لو أنك أخرجت كسرولة ووضعتها على رأسك فلن يهتم أحد أكثر من ثلاث دقائق.

أنت أفضل من يتكلم عن الموضوع لأن أحدًا لم يقرأ كتاباتك كما قرأتها أنت!.. لا أحد يذكر ما كتبته ولا يهتم به..

حتى لو ارتبكت وتلعثمت سيبدو هذا ضمن غرابة أطوار العباقرة.. تذكر أن نيوتن وداروين لم يكونا قادرين على مواجهة الجمهور، لذا عين نيوتن هالي للرد والكلام بدلاً منه، كما عين داروين هكسلي.. حتى برنارد شو نفسه وهو من هو في طول

اللسان وعدم الخجل، اعترف أنه لم يكن قادرًا على مواجهة الجمهور في بداية حياته، وقد حضر دورات في التمثيل كي يتعلم قهر هذا الخجل.

ابحث عن فتاة حسناء بين الحضور وثبت عينك عليها وحدها وكلمها هي دون الآخرين.. كأنك تقول لها: هذا الكلام لك ولك وحدك.

يجب أن تكره الجمهور (مؤقتًا أثناء الندوة فقط) وتشعر بغيظ لفكرة أن هؤلاء يقيمونك.. من هم كي يفعلوا ذلك؟

لا بأس بقرص من دواء مهدئ اسمه (..) قبل الندوة بربع ساعة..

قال لي إن النصائح تبدو جيدة، برغم أن بعضها أقرب إلى السباب العلني الذي يعاقب عليه القانون.. أنا باختصار أؤكد له أنه لا قيمة له ولا أهمية، وهذا كي أعيد له ثقته بنفسه!. أنت

نكرة فلا تقلق من شيء.. على كل حال هو سيجرب ويخبرني بالنتائج.

جاء موعد الندوة ولم أذهب للأسف، لكنه اتصل بي بعدها وكان سعيدًا جدًا.. قال لي إن نصائحي كانت جمة النفع..

-"لم أعرف من قبل أن مواجهة الجماهير أسهل شيء في العالم"

الحقيقة أنه لم يكن هناك جمهور متشكك ولا حسناء يوجه لها الكلام.. لقد بلغت لا مبالاة الجمهور به درجة رائعة راقت له كثيرًا، هي أنه لم يكن هناك جمهور أصلاً!.. كان هناك ثلاثة معظمهم من معارفه، وقد أراحه هذا جدًا..

ثانيًا معدته استراحت تمامًا بعد تناول القرص المهدئ الذي وصفته له. معدته؟.. هنا عرفت أنه كتب الاسم خطأ فصار دواء لعلاج قرحة المعدة!.

هكذا نجد أن التجربة لم تكن خاسرة تمامًا بفضل نصائحي. لقد حضر الندوة وشفي من أعراض قرحة المعدة. وهذا ما يدفعني دفعًا إلى التفكير في تأليف كتاب عن فن مخاطبة الجماهير.. ألا ترى هذا معي؟



أثار ذلك الكاتب غيظي بكل ما يكتبه من أكاذيب وما يملأ سطوره من إدعاء، لهذا أعددت مقالاً عنيفًا لا يمكن أن يقرأه من دون أن يصاب بالفالج أو يرفع علي قضية لو ظل حيًا.. واختزنت عشرات الصور الضوئية لمقالاته وما يبدو في كلماته من تناقض واضح، حتى صار نموذجًا لمن يقول ما لا يفعل.. باختصار استعددت بكل شيء، وبقيت تفصيلة صغيرة هي: ما المبرر لنشر مقال كهذا؟.. لو نشرته اليوم بلا مبرر لبدوت حاقدًا موتورًا وربما مجنونًا كذلك..

المبرر الوحيد هو أن يهاجمني.. ستكون هذه غلطة عمره لأنه بهذا ينبش عش الدبابير وعلى نفسها جنت براقش.. المشكلة أنه لم يفعل.. لم يهاجمني قط، ولهذا أنا انتظر.. أنتظر.. أتابع مقالاته بلهفة وحماسة منتظرًا أن أقرأ الكلمات المحببة.. أن يذكر اسمي مصحوبًا ببعض الشتائم.. عندها يخرج المقال من مخبئه وتفتح أبواب الجحيم..

إن هذا الموقف يبدو مألوفًا إلى حد ما..

أنت تعرف طبعًا إنني لا أقرأ مجلة ميكي ولا ألمسها.. ميكي؟.. هذه مجلات أطفال يا صديقي وأنا رجل في العقد الخامس من عمري.. فقط عندما تقع نسخة تحت يدي بالصدفة، ويكون ابني قد نساها على مكتبه أتصفحها في حذر لمجرد أن أعرف ما يقرؤه أولادي.. هذا من حقي طبعًا.. صحيح أن هذا يحدث طيلة الوقت لكنه لا يجعلني من قراء المجلة المنتظمين..

في إحدى قصص هذه المجلة يقوم العم الثري (سكروج) — الذي يعرفه العرب باسم عم (دهب) – بتحصين خزانته بتكنولوجيا متقنة باهظة التكاليف، ثم ينتظر قدوم أعدائه الأبديين (عصابة القناع الأسود). يرتقب في تلذذ ما سيحدث لهؤلاء الأوغاد عندما يحاولون السطو على ماله.. ينتظر طويلاً جدًا.. إنه سهران جوار المدفع يردد: "العصابة لم تهجم حتى الآن.. إنها عصابة من الكسالى!"

طبعًا تهجم العصابة لكن في الوقت غير المناسب، وتكون النتيجة هي أن الاختراعات لا تجدي نفعًا! ليس هذا موضوعنا على كل حال. النقطة الأساسية هي أنك تعد أحيانًا انتقامًا جميلاً ممتعًا وتنتظر الفرصة التي تتيح لك تنفيذه، لكن الطرف الآخر يتصرف بتعقل يثير الغيظ!

أذكر في شبابي إنني كنت مع صديق لي في زيارة صديق ثالث، وكان لصديقي هذا دراجة تركها مربوطة بالجنزير أمام البناية.. بعد قليل لحقت بنا مجموعة من زملاء الدراسة المشاغبين الذين يحبون تعذيب صديقي صاحب الدراجة هذا واستفزازه.. كانوا قادمين في سيارة واحد منهم.. بعد جلسة متوترة وجدنا أنا وصاحبي أنه من الأفضل أن نرحل وغادرنا المكان..

على درجات السلم قال صديقي صاحب الدراجة:

-"أنا أعرف يقينًا أنهم ثقبوا إطار دراجتي ليغيظوني.. لن يفوتوا هذه الفرصة.."

ثم مد يده في جيبه ليخرج مطواته وقال:

-"لو فعلوا هذا فلسوف أثقب لهم إطارات سيارتهم!.. هم استحقوا ذلك!"

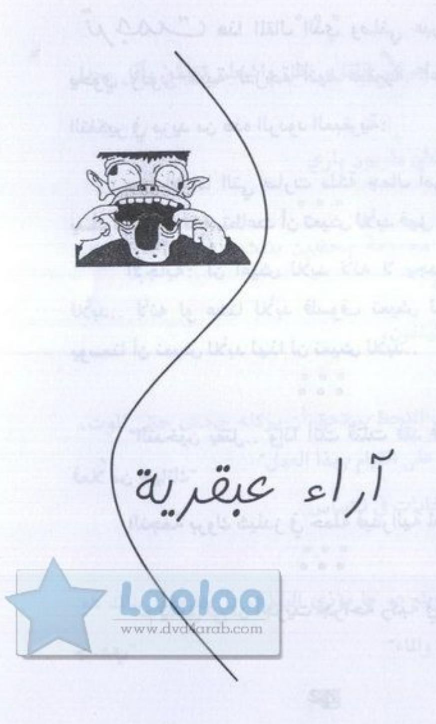
لكننا غادرنا البناية فوجدنا دراجته سليمة تمامًا لم تمس، وحيث تركها.. هكذا رحلنا شاعرين بغصة في حلقينا.. قال لي في غيظ:

-"خسارة.. ليتهم فعلوا ذلك!.. كان انتقامًا جميلاً فعلاً!.. كلما تخيلتهم واقفين في الظلام يحاولون استبدال الإطارات الأربعة المزقة شعرت بفداحة ما فقدته!"

حتى على نطاق الدول قد يحدث هذا الموقف على نطاق واسع. أنت تعرف أن اليابان كانت موشكة على الاستسلام فعلاً، لكن الولايات المتحدة التي تعبت كثيرًا في إعداد انتقامها النووي لم تتحمل أن تنتهي الحرب من دون أن تستعمله.. هكذا هوت القنبلة على هيروشيما ومن بعدها ناجازاكي.. إن الولايات

المتحدة باختصار شديد لم تنتظر حتى تثقب لها اليابان إطار الدراجة!

الآن أنت تفهم لماذا أتابع مقالات هذا الكاتب بحماس واهتمام نادرين.. إنني أنتظر.. وأنتظر.. وأنتظر.. ورعبي الحقيقي هو ألا يهاجمني أو يشتمني ولو مرة واحدة قبل أن أموت!. لو كانت لك علاقة به فلتقنعه بهذا رحمة بي من فضلك!



ترجمت هذا المقال الذي وصلني عبر الإنترنت لأنه يحوي ردودًا غبية لدرجة أنها عبقرية. أعتقد أنه يمكنك التفكير في مزيد من هذه الردود العبقرية:

مس ألاباما التي صارت ملكة جمال أمريكا عام 1995. يسألونها: إذا ما استطاعت أن تعيش للأبد فهل تقبل؟.. ولماذا؟

الإجابة: لن أعيش للأبد لأنه لا يجدر بنا أن نعيش للأبد.. لأنه لو عشنا للأبد فلسوف نعيش للأبد.. لكن ليس بوسعنا أن نعيش للأبد لهذا لن نعيش للأبد..

° ° °

"التدخين يقتل.. وإذا أنت قتلت فقد فقدت جزءًا مهمًا فعلاً من حياتك"

النجمة بروك شيلدز في حملة فيدرالية لمنع التدخين

° ° °

"لم يسبق لي أن أجريت جراحة ركبة في أي جزء آخر من جسدي"

ونستون بنيت – لاعب كرة سلة

° ° °

"فيما عدا جرائم القتل، تظل واشنطن تتمتع بأقل معدل جريمة في البلاد"

عمدة واشنطن ماريون باري

° ° °

"لن أترك مجموعة صحفيين ينبشون في أوراقنا.. فنحن رئيس الجمهورية"

هيلاري كلينتون

° ° °

"هذا الوغد المنحط يستحق أن يركله جحش حتى الموت، وأنا الرجل القادر على القيام بهذا العمل"

مرشح انتخابات في تكساس

° ° °

"ليس التلوث هو ما يؤذي البيئة، بل ما يفعل ذلك هو الشوائب في الهواء والماء"

آل جور – نائب الرئيس كلنتون

• • •

"نحن نتأهب لحادث غير متوقع، قد يحدث أو لا يحدث"

آل جور – نائب الرئيس كلنتون

• • •

"أنا أحب كاليفورنيا.. فقد تربيت بالفعل في تكساس!"

دان كوايل

• • •

"كلمة (عبقري) لا تنطبق على كرة القدم.. العبقري هو شخص مثل نورمان أينشتاين"

جو ثيسمان – محلل رياضي

• • •

"نحن لا نفرق بين الناس.. فقط نحن نستبعد نوعًا بذاته من البشر"

كولونيل جيرالد ولمان – مدرب في الجيش

• • •

"لو لم ننجح فنحن نجازف بالفشل"

بيل كلنتون

• • •

"عادة تأتي أغلب واردات أستراليا مما وراء البحار"

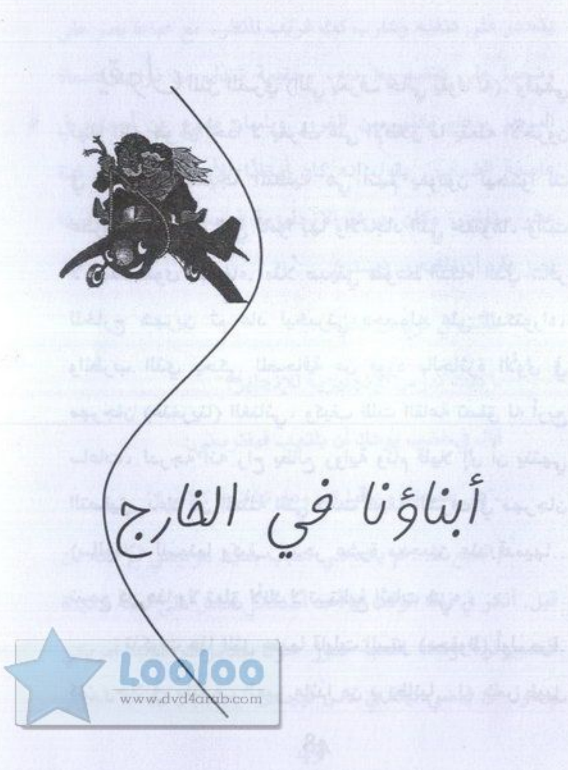
كيبل اندبيري

• • •

"سوف تتوقف كوبونات الطعام الخاصة بك بدءًا من مارس 1992 لأننا تلقينا مذكرة تقول إنك توفيت. ليرحمك الله. يمكنك تقديم طلب ثان في حالة تغير ظروفك"

إدارة التموين – جرينفيل – ساوث كارولينا

• • •



"لو أعطيت رجلاً سمكة فلسوف يصطاد السمك يومًا واحدًا، بينما لو علمته الصيد لاصطاد السمك للأبد"

دان كوايل – نائب سابق لرئيس الولايات المتحدة

• • •

"إن لدي آرائي الخاصة.. آراء قوية.. لكنني لا أتفق معها دائمًا"

"البيت الأبيض أبيض" قالها عندما سأله طالب بريطاني عن رأيه في البيت الأبيض

"لولا اختراع الكهرباء، لجلسنا نشاهد التلفزيون في ضوء الشموع"

جورج . و .بوش

• • •

يقول المثل المصري (اللي يعرف خالي يقول له). وفهمي لهذا المثل هو أن أحدًا لا يعرف على الإطلاق ما يفعله الآخرون في الخارج. والنتيجة المنطقية هي أنهم يعودون ليحكوا لك عشرات البطولات التي قاموا بها والأمجاد التي حققوها، وأنت لا تملك سوى الإصغاء. مثلاً صديقي متوسط الذكاء الذي سافر للخارج شهرين ثم عاد ليخبرني بحصوله على الدكتوراه، والمطرب الذي يحكي للصحافة عن فوزه بالجائزة الأولى في مهرجان (غنغرينا) الغنائي، وكيف ظلت القاعة تصفق له أربع ساعات، لدرجة أنه راح يطالع رواية ونام قليلاً إلى أن ينتهي التصفيق. دعك من الممثلة التي كانت ضيفة الشرف في مهرجان (سالمونلا) للسينما وكيف انتحر عشرة معجبين عند قدميها.. تسمع كل هذا ولا تعلق لأنك لا تستطيع إثبات شيء..

تذكرت هذا المثل عندما قابلت المستر (محفوظ) أول مرة. كان رجلاً في منتصف العمر عائدًا من بريطانيا.. له شعر طويل

ينحدر على كتفيه وشارب كث غريب المنظر، مع عباءة يصر على وضعها على كتفيه بلا داع، وحقيبة تتدلى من ذراعه كسعاة البريد. يتكلم بكثير من الغرور وبلسان معوج عن أمجاده في عاصمة الضباب.. يقول إنه كان أستاذًا للأدب الإنجليزي لمدة عشر سنوات، وكان يدرس الإنجليزية في معهد برليتز، ولهذا يصر على أن نلقبه بـ (مستر).

سألته في نوع من الشك:

ـ"كنت تدرس الإنجليزية للإنجليز؟"

قال في غضب يوشك أن يلتهب فيفترسني:

ـ"هل خدعتك من قبل؟.. وهل تشك في كلامي؟"

بالطبع لا.. لم يخدعني لسبب بسيط هو إنني لم ألقه من قبل. أذكر في ذلك الوقت أن أحد أصدقائي حصل على لعبة جديدة للكمبيوتر، وهذه اللعبة تدور حول مغامرات شاب أمريكي يحاول أن يمضي ليلة في لاس فيجاس.. يجب أن تكتب الحوار

المناسب لهذا الشاب. طلب الصديق مساعدتي لأن إنجليزيته لا تسمح له بالمواصلة، وهكذا زرته أنا ومستر (محفوظ) هذا..

كانت العملية صعبة فالمواقف كثيرة في اللعبة، والحوار بالعامية.. لذا كنت أنظر من حين لآخر للمستر محفوظ طالبًا مساعدته.. ما معنى هذه العبارة؟.. ماذا يريد رجل الشرطة مني؟.. وفي كل مرة أرى على وجهه علامات العته والغباء والتخلف المغولي.. فقط ينظر للشاشة بعينين واسعتين زائغتين ويحرك شفتيه بكلمات غامضة، فإذا اقترحت أنا شيئًا هز رأسه موافقًا..

-"قلت إنك كنت تدرس الإنجليزية للبريطانيين؟"

-"وهل تشك في ذلك؟"

بدأت أعتقد أنه كان في روسيا أو بلغاريا، فعصا المكنسة تجيد الإنجليزية أفضل منه. لكن لحظته جاءت في النهاية. في أحد مواقف اللعبة يقابل البطل فتاة ليل وعليه أن يساومها ليقنعها بالذهاب معه إلى فندقه.

هنا فقط عرفت أنني ظلمت المستر محفوظ.. لقد التمعت عيناه وبدا عليه الحماس، ثم أزاحني بكتفه وجلس أمام الشاشة

وراح يكتب عبارات عبقرية بلغة إنجليزية مسترسلة سلسة، وبلهجة عامية لم أسمعها قط من قبل..

الحق إن الرجل كان حجة..لا أحد يملك هذه الفصاحة ولا هذه البراعة.. رحنا عبثًا نقنعه أن هذا كاف وأننا له شاكرون، لكن الرجل انطلق لا يلوي على شيء وراح يكتب ويكتب..

على الأقل أنا أعرف بالضبط الآن ما كان يفعله مستر (محفوظ) في لندن.. إننا ظلمناه كثيرًا. فقط نحن لم نختر له نوع المحادثات التى يجيدها والتي تمرس عليها..

نعم.. لا يمكننا أبدًا أن نعرف ما فعله الآخرون في الخارج، وعلينا أن نصدق ما يقولونه عن أنفسهم أو نبتلعه. هناك قصة طريفة عن الأب الذي أرسل ابنه لباريس كي يدرس الطب ثم بعد عامين قرر أن يزوره في غربته.. راح الفتى الفخور يجوب بأبيه معالم المدينة وهو يشرح له: هنا ملهى كذا الليلي.. هنا مرقص كذا.. هنا بار كذا.. هنا مسرح كذا..

في النهاية كانت هناك بناية عملاقة عجز الابن عن معرفة كنهها، فهو لم يلحظ وجودها قط قبل اليوم.. هكذا اتجه الأب إلى أحد الواقفين ليسأله عن هذا المكان. قال الرجل:

-"هذه كلية الطب طبعًا يا سيدي!"



استكمل في هذا المقال بعض المقولات العبقرية التي يمكن أن تصير أمثالاً للأجيال القادمة:

الملاكم ألان منتر يقول:

-"بالطبع هناك إصابات وحالات موت في رياضة الملاكمة، لكنها غير خطيرة".

مرشح الرئاسة الأمريكي السابق (بوب دول):

-"الإنترنت طريقة ممتازة لدخول شبكة الإنترنت"

مدرب كرة القدم لفريق فلوريدا (بيل برستون):

-"قفوا أمامي يا شباب بالترتيب الأبجدي.. أي حسب الطول"

شارل ديجول الرئيس الفرنسي السابق:

-"الصين بلد كبير يسكنه الكثير من الصينيين"

دنيس رودمان لاعب كرة السلة :

-"الكيمياء هي صف تأخذه في المدرسة الثانوية حيث تتعلم أن 2 + 2 = 10.. أو شيء من هذا القبيل"

هاري نيوز — ناقد موسيقي:

-"هل في الألبوم أية أغان تروق لك وليست فيه؟"

السفير الفرنسي جاك لي بلان يتكلم عن القنابل الذرية:

-"لا أحب لفظة (قنبلة).. هي ليست قنبلة.. هي أداة تنفجر لا أكثر"

عارضة الأزياء لندا ايفانجلستا:

-"أنا لا أمارس أي رجيم.. فقط لا آكل الكميات التي اعتدت أكلها"

مدرب الملاكمة لو دوفا يتكلم عن بطل الوزن الثقيل جولوتا:

-"هو رجل يصحو يوميًا في السادسة صباحًا مهما كان الوقت"

رتشارد نيكسون الرئيس الأمريكي السابق:

-"الحلول ليست هي الإجابات"

صمويل جولدوين:

-"حياة العزاب لا تناسب الرجل الوحيد"

تيري فينابلس:

-"لو كرر التاريخ نفسه فعلينا أن نتوقع حدوث ذات الأشياء"

تحذير على بدلة الرجل الوطواط المباعة للأطفال:

-"تحذير.. العباءة لا تمكنك من الطيران"

جورج والاس من أعضاء الحملة الانتخابية لعام 1968:

-"لقد درست السياسة الخارجية بجد.. الآن أعرف عدد قارات العالم"

دان كويل – نائب سابق لرئيس الجمهورية:

-"حان الوقت كي يدخل كوكبنا المجموعة الشمسية!"

معلق في الراديو:

-"سمعنا أنه بعد أول جراحة زرع قلب في بلجيكا، فإن المتبرع والمتلقي كليهما بخير"

لافتة على الطريق رقم 27 بالولايات المتحدة:

-"ممنوع مرور المركبات المسموح بمرورها"

رون أتكنسون – رياضي:

-"أنا لا أعلق على رأي الحكام، ولن أغير هذه العادة من أجل غبي كهذا"

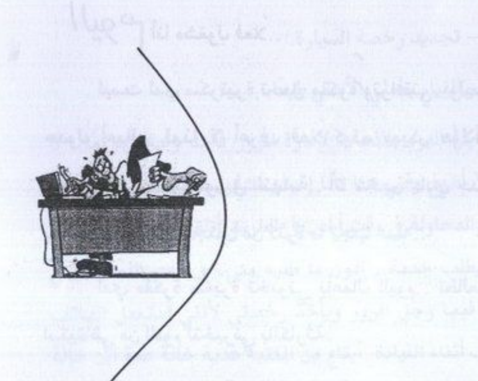
دان أزينسكي – لاعب بيزبول أمريكي سألته الساقية إن كانت تقطع له فطيرة البيتزا لست أم ثماني قطع:

-"اجعليها ست قطع.. فلا أقدر على أكل ثمان"

ديفيد كولمان – معلق رياضي:

-"هذا هو موزس كيبتانوي.. الكيني ابن التسعة عشر عامًا الذي صار ابن عشرين عامًا منذ أسابيع"





مشغول



اليوم أنا مشغول فعلاً..

ليست لدي سكرتيرة تحمل مفكرة وترافقني، وليس لدي جدول أعمال، لهذا لا أعرف فعلاً كيف يعيش هؤلاء القوم المهمون ولا كيف ينامون في النهاية.. أنا شخص عادي جدًا لكني بالفعل موشك على الجنون من كثرة ما يجب عمله..

لدي مفكرة صغيرة تخبرني بأعمال اليوم.. تطالعني مع استيقاظي من النوم لتخبرني بالكارثة:

- الرد على خمسة خطابات مهمة.
- كتابة هذا المقال.
- مراجعة دروس الفرنسية مع ابني الصغير.
- شراء هدية عيد ميلاد خالة عمة ابن خالة زوجتي .. لو لم أتذكرها لخرب بيتي.
- شراء أقلام جديدة وممحاة لأن الأولاد أبادوا ما لدي منها.

- شراء الخضر واللحم والبقالة.
- تجديد رخصة السيارة.
- القيام بعملي الأصلي طبعًا.

أبدأ اليوم بالذهاب لإدارة المرور فأجد زحامًا مريعًا.. لا يمكن أن أضيع وقتي هنا فأنا إنسان مشغول.. ربما يجب الذهاب لعملي والمحاولة في وقت آخر. في الطريق أتلقى مكالمة هاتفية من صديق يطلب خدمة.. أدون ما طلبه مني، في ذات اللحظة التي يوقفني فيها رجل المرور ويأخذ رخصتي لأنني أستعمل الهاتف المحمول أثناء القيادة. أبتاع من المكتبة هدية خالة عمة ابن خالة زوجتي لكن زوجتي تطلب مني أن أبدلها لأن ذوقها رديء لا يروق لخالة عمة ابن خالة زوجتي، وهكذا أعود للمكتبة لأجدها مغلقة.. بالمناسبة نسيت الأقلام والمحاة التي اشتريتها بالداخل..

أقرر الرد على الخطابات فأكتشف أن الكمبيوتر معطل.. اتصل بالصيانة فيطلبون مني أن أحضر الجهاز لهم. هذا يعني أنني لن أرد اليوم.. أبدأ كتابة هذا المقال على جهاز آخر، ثم

أتذكر أنني لم أشرح الفرنسية لابني.. أناديه ليحضر كتابه معه.. هناك قاعدة جديدة في اللغة الفرنسية اخترعها الفرنسيون أمس كما يبدو، وهي تصريف الفعل الذي كان سيحدث في الماضي لكنه حدث في المستقبل كذلك.. لا أفهم شيئًا على الإطلاق، لكنني مصر على ألا أجلب له مدرسًا خصوصيًا.. أنا مثقف ولسوف أفهم هذه القاعدة بنفسي..

آخذ الكتب معي إلى مكتبي هنا أتذكر أنني لم أشتر الخضر واللحم والبقالة.. أنزل للشارع لأكتشف أن إطار السيارة قد فرغ من الهواء.. سيكون علي أن أجد من يبدله لي لأنني لا أملك رافعة. يجب أن أبتاع رافعة.. يتصل بي صديقي ليكرر الطلب السابق فأعده بأن أنفذه له.. يا خبر!.. وسط هذه الفوضى نسيت أن أذهب لعملي الأصلي.. سيكون علي تقديم إجازة غدًا..

الآن جاء الليل.. وقد اكتشفت أن لدي قائمة جديدة:

- خدمة صديقي هذه ويعلم الله كم هي عسيرة.
- استرداد الرخصة التي سحبوها مني.

- إعادة الهدية للمكتبة واستبدالها.
- استرداد الأقلام التي نسيتها.
- أخذ الكمبيوتر لشركة الصيانة.
- دراسة القاعدة الفرنسية الجديدة العجيبة.
- تقديم إجازة عن اليوم الذي تغيبت فيه.
- إصلاح إطار السيارة وشراء رافعة.
- البحث عن شيء يؤكل في البيت لأن زوجتي لم تطه شيئًا لأنني لم أبتع أي شيء.

لاحظ أن هذه القائمة سوف تضاف لقائمة اليوم، وغدًا تضاف لهذا كله قائمة الغد.. أي أن علي غدًا أن أقوم بـ 25 مهمة صعبة على الأقل، والويل لي لو حدثت تراكمات جديدة!. كل هذا وأنا رجل عادي ولست رئيس جامعة ولست وزيرًا أو رئيس منظمة في الأمم المتحدة..

لأنني تأخرت جدًا

أعرف ما سوف تنتهي له الأمور غدًا.. سوف أمزق القائمة كلها وأجلس أمام التلفزيون طيلة الأمسية. هذه هي الطريقة الوحيدة وهي تنجح على الدوام كما تعرفون!

كل عام وأنت بخير.. لا أعرف يقينًا إن كنت ستقرأ هذا المقال قبل العيد أم بعده، لكني أسجل موقفي اليوم بوضوح وصراحة: كل عام وأنت بخير..

عندما يقترب العيد، تنشأ مشكلة أسرية تتزايد حدتها يومًا بعد يوم: شراء الخروف.. يبدو الأمر سهلاً فالخراف في كل مكان وعند كل جزار ومبلغ الجمعية التي قبضتها في جيبي، لكن أصحاب الخبرة يقولون إنني أحمق تأخرت أكثر من اللازم وإن فرصة شراء خروف جيد ضاعت للأبد.. البعض يقول إنه كان علي أن أبدأ منذ عام.. أي بعد عيد الأضحى السابق، والبعض يقول إنه كان علي أن أبدأ منذ ثلاثة أعوام.. أعتقد أن الذي يزعم أنه كان علي البدء وأنا في سن المراهقة يبالغ نوعًا. دائمًا أنت متأخر.. دائمًا أنت ضيعت الفرصة.. دائمًا الخراف التي تملأ الشوارع الآن هي أسوأ خراف ممكنة ولحمها مسمم ومصابة بالسرطان والفشل الكبدي الكلوي. ولكن من الذي يشتريها

إذن؟.. لابد أن هناك من يفعل.. يقولون لي: يشتريها البلهاء وأنت لا تريد أن تكون منهم..

هكذا يتصل صديق بصديق وهذا الصديق يتصل بصديق.. وتدور مفاوضات غامضة تشبه عمليات تهريب السلاح التي تمولها المافيا. وفي النهاية يظهر رجل غامض يخبرني وهو يتلفت حوله والعرق يغمره أن هناك من يربي خرافًا ممتازة على سطح دارهم. هكذا أذهب إلى العنوان المريب ليعطوني خروفًا لا أجد فيه أية مزية فهو يشبه أي خروف آخر، دعك من أنه أغلى من أي خروف عند الجزارين.. يقولون لي في غموض إن هذا ما أعتقده لأنني سانج.. في الواقع هم أعطوني جوهرة..

أعود بهذا الخروف المذهل للبيت في سيارة نصف نقل. طبعًا لا يوجد مكان يصلح سوى سطح البناية.. لابد من ربطه بحبل قوي محكم لأن للخراف هواية غريبة هي الانتحار من أعلى البناية عندما يصعد الجزار السلم صبيحة العيد.

هذا ما أعتقده طبعًا حتى أصعد في الصباح لأضع له الطعام لأكتشف أنه تحرر من الحبل، وأنه سريع جدًا وأنه مفترس كوحش المينوطور في الأساطير الإغريقية. مطاردة عنيفة جدًا على السطح وأنا أحاول الفرار من قرنيه وحوافره بينما هو مصمم على تمزيقي إربًا. تصعد زوجي على صوت الجلبة فتصاب بالذعر وتتوسل لي:

-"لا تجعله يجري!.. أمي تقول إن الجري يتلف لحمه!"

أنجو منه بمعجزة، وأحكم ربطه بحبل غير قابل للمضغ بمعجزة أخرى بينما تلومني زوجتي على تأخري في شراء الخروف.. لو اشتريته مبكرًا لاستغنينا عن هذه المشاكل..

طبعًا أنا مرهق جدًا فلا أستطيع سؤالها عن العلاقة بين التأخر في شراء الخروف وسرعته في الجري وولعه بمذاق الحبال. على كل حال أقرر أن أعهد لها بمهمة إطعامه.. المهمة التي تقوم بها بكفاءة فعلاً لأنني لم أسمع صرختها وهي تسقط من أعلى ولا مرة..

يأتي عيد الأضحى.. بعد الصلاة أقابل وسط بحيرات الدم التي تغطي الشوارع ذلك الجزار الذي تتدلى السكاكين والشواطير من حزامه. أطلب منه أن يرافقني لذبح هذا الخروف.. يصعد معي إلى السطح ويرى الخروف فينفجر في الضحك:

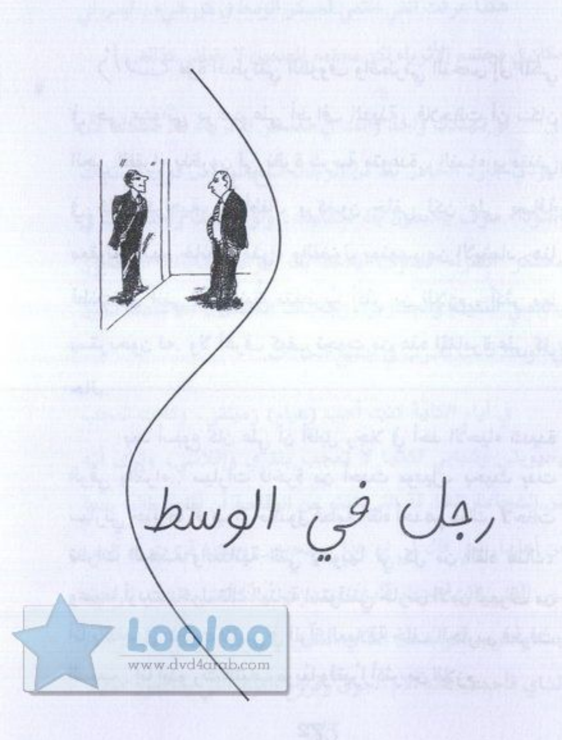
-"هل اشتريته من (عباس أبو شفة)؟..الذي يربي الخراف على سطح البناية؟"

-"نعم.."

-"هع هع!"

لا أفهم سبب كل هذا المرح ولا ما هو مضحك في الموضوع.. فقط أسمعه يقول في سره: ربنا يعوض عليك. ثم ينقض على الخروف ليفتك به في ربع ثانية. ثم يقول لي وهو يعد ماله وينصرف:

-"معلش.. ربنا يعوض عليك هذه المرة.. يبدو أنك بدأت متأخرًا جدًا..في العام القادم لو أحيانا الله قل لي منذ آخر رمضان كي أجد لك خروفًا حقيقيًا.."



-"وهل هذا الخروف ليس حقيقيًا؟"

-"هع هع"

وينصرف دون أن أفهم. على كل حال لم أر أية مشكلة حتى هذه اللحظة.. فقط كلما أعدت زوجتي طبقًا لا يروق للضيوف أو أمي قالت لي:

-"لأنك تأخرت جدًا!.. هكذا انتهت الخراف الجيدة من السوق، ثم أنه جرى خلفك كثيرًا"

لهذا أفكر جيدًا في أن احجز خروف العام القادم غدًا.. صحيح أنني قد أموت فلا أذوق منه قطعة واحدة، والأدهى أن يموت الخروف نفسه، لكن لابد من بعض المقامرة في لعبة الحياة كي نجد الخراف الأفضل قبل أن يأخذها الآخرون.

ذات مرة اضطرتني الظروف واضطرني النحس إلى المشي في حي عشوائي مرعب على أطراف المدينة، فلاحظت أن سكان الحي الفقراء ينظرون لي نظرة شرسة متوعدة.. النساء يرمقنني في شك وكراهية، والأطفال يركضون خلفي لكن على مسافة معقولة لأنهم خائفون مني، والفضول يمنعهم من الابتعاد. هنا فطنت إلى أنني أبدو أنيقًا متغطرسًا أكثر من اللازم.. أكثر مما يستريحون له. ولا أعرف كيف نجوت من هذه المغامرة على كل حال.

بعد أسبوع كان علي أن أقابل رجلاً في أحد الأحياء شديدة الرقي والثراء.. سيارات فاخرة من أحدث موديل، بحيث بدت سيارتي جوارها أقرب إلى صندوق قمامة ألقاه أحدهم هناك. لاحظت نظرات الدهشة والعدائية التي يصوبها لي كل من ألقاه هناك، وعندما أردت دخول تلك البناية استوقفني حارس الأمن ليعرف من أنا بالتفصيل. نظرت لنفسي في المرآة العملاقة خلف الحارس فعرفت السبب.. أنا أبدو رث الثياب مريبًا وفقيرًا أكثر من اللازم..

هكذا عرفت أنني أنتمي لمعسكر الوسط في كل شيء.. ليس لي مكان في مجتمع الأثرياء لكن مجتمع المعدمين لا يقبلني كذلك..

لو تهددك واحد وأنت في معسكر الأثرياء فلا مشكلة لأن البودي جارد الخاص بك من الرجال صلع الرءوس ذوي السترات السوداء سوف يحيطون بك لحمايتك، ولو تهددك واحد وأنت في معسكر الفقراء فلسوف يحيط بك أفراد عصابتك المدججون بالعصي الثقيلة والجنازير وزجاجات الحمض.. أما عندما تكون في الوسط فأنت تُضرب في جميع الحالات..

في أيام الكلية كنت أحب (هيام) زميلتي، وكانت تعجب بحيويتي وشبابي لكنها لا تعجب بفقري وإفلاسي، وترى أنه من الشجاعة الخارقة التي تدنو من الوقاحة أن أتقدم طالبًا يدها من أهلها. أبي قال لي إن هذا مستحيل.. وهكذا قررت أن ألعب دور الفتى الذي تحطم قلبه، وسهرت أيامًا أكتب الشعر الرديء جدًا وأشرب أكوابًا من الشاي الثقيل الأسود.. تؤلمني معدتي من الشاي فأحسب هذه آلام الجوى وقروح الفؤاد التي يتكلمون عنها.

قضيت عمري أحاول جمع المال.. ثم صار لديّ ما يسمح بأن أطلب يد (هيام).. بحثت عنها فوجدتها قد صارت امرأة بدينة مرعبة ولديها خمسة أطفال لا تكف عن صفعهم.. هنا وجدت فتاة تشبه (هيام) الشابة تمامًا.. لها نفس الطباع ونفس اللمسة الرقيقة الحزينة. طلبت أن أتقدم لها لكنها نظرت لي في تأمل طويل، ثم قالت:

ـ"أنت في وضع مادي لا بأس به، لكن معذرة.. لا توجد شعرة واحدة سوداء في رأسك.. ألم يخطر لك أنك لو تزوجت في سن العشرين لكانت عندك ابنة في سني؟"

ثم راحت تمتحنني:

ـ"هل تعرف آخر أغنية لـ (تامر حسني)؟.. ماذا تعرف عن (جورج وسوف)؟.. ما هو تشكيل خط الوسط للفريق الأهلي؟.. ما هو آخر فيلم لليوناردو دي كابريو؟"

طبعًا لم أنطق..

معها حق..

أنا في معسكر الوسط. السن الوسطى حيث لم يعد بوسعك الظفر بهيام، ولا تريد واحدة أخرى تصفع أطفالها ثلاث مرات يوميًا..

حتى لو قررت الزواج بلا حب.. أنت لن تتزوج (عطيات) الفتاة الفقيرة الجميلة حارة العواطف فهي ليست من طبقتك، ولن تتزوج (إنجي) الفتاة الأرستقراطية المدللة التي تلعب التنس وتسافر لأوروبا مرتين كل عام.. سوف تتزوج عروسًا من الطبقة الوسطى هي (إلهام) ابنة الأستاذ عبد الجواد معلم الجغرافيا، وهي تؤمن أن الارتباط بك ثمن باهظ لابد من دفعه مقابل الظفر ببيت وأطفال.. توطئة لأن تصير أمًا لخمسة أطفال تصفعهم طيلة اليوم..

نعم.. مشكلة أن تكون رجلاً في الوسط مشكلة عويصة في علم الاجتماع، تحتاج إلى مقال أطول. لكنني لن أستطيع المرور عليها مر الكرام كما يفعل الرجل العادي، ولن أستطيع كتابة

دراسة أكاديمية متخصصة عنها، لأنني في الوسط بالضبط بين الجاهل والأكاديمي!



هناك قوانين غامضة خفية تحكم حياتنا، ولم يحاول أحد قط أن يقيسها أو يدرسها بعناية، لكنك لاحظت بعضها من قبل: مثلاً لماذا لا يدق جرس الهاتف إلا وأنت في الحمام؟.. لماذا لا تسقط الأقلام الثمينة إلا على سنونها؟.. وقد لاحظ الغربيون هذه القواعد الغامضة ووصفوها.. واليوم أقدم لك بعضها:

قانون البساط: سمك البساط الفاخر في غرفة المسئول الذي تقابله يدل على حجم المشكلة التي أنت متورط فيها.

قانون الطابور: عندما تغير الطابور فإن الطابور الذي تركته سوف يتحرك أسرع من الطابور الذي انضممت له.

قانون الهاتف: عندما تطلب رقمًا خطأ فمن المستحيل أن تكتشف أنه مشغول!

قانون الميكانيكية: بعد ما تتسخ يداك بالشحم وأنت تصلح شيئًا، تشعر برغبة كاسحة في حكّ أنفك.

قانون الورشة: أية أداة تسقط في الورشة سوف تتدحرج إلى الركن الذي يستحيل الوصول له.

قانون التغيب: لو قلت لرئيسك في العمل إنك تأخرت لأن إطار السيارة فرغ من الهواء، فلسوف تجد إطار السيارة فارغًا من الهواء فعلاً في اليوم التالي.

قانون الحمام: عندما تغمر جسدك بالماء في المغطس يدق جرس الهاتف.

قانون اللقاءات اللصيقة: تزداد فرصة لقاء شخص لا تريد أن تراه، كلما كنت مع شخص لا تريد أن يراك أحد معه!

قانون النتيجة: عندما تحاول أن تقنع شخصًا بأن هذا الجهاز لن يعمل، فإن الجهاز يعمل بالتأكيد.

قانون الميكانيكا الحيوية: قوة الحكاك الذي تشعر به يتناسب مع صعوبة الوصول لموضع الحكاك لهرشه.

قانون السينما: الناس الذين حجزوا مقاعدهم بعيدًا عن الممر يصلون متأخرًا..

قانون القهوة: ما أن تجلس أمام قدح القهوة حتى يطلبك رئيسك في عمل لن ينتهي حتى تبرد القهوة.

قاعدة الطاقة: لا يعتقد أحد أن السيارة المستعملة اقتصادية في استهلاك الوقود باستثناء البائع.

دستور المحادثة: لو أردت ألا يسمع أولادك ما تقوله، فتظاهر بأنك توجه لهم الكلام.

قانون العزاء: العزاء الوحيد لمن يبلغ سن الخمسين هو اطمئنانه أنه لن يموت شابًا.

لغز الثقوب: أصغر ثقب يمكنه إفراغ أكبر إناء، ما لم يكن الهدف منه هو التصريف أصلاً لأنه ينسد عندئذ فورًا !

قانون المحامين: عندما يعمل محام واحد في بلدة فإنه لا يكسب ما يكفيه، بينما لو تواجد محاميان فإنهما يعملان بلا توقف!

قانون القطارات: لو وصلت للمحطة مبكرًا تأخر القطار بينما لو وصلت متعجلاً فاتك القطار.

قانون اللحظة: لولا اللحظة الأخيرة لما أنجز البشر أي عمل.

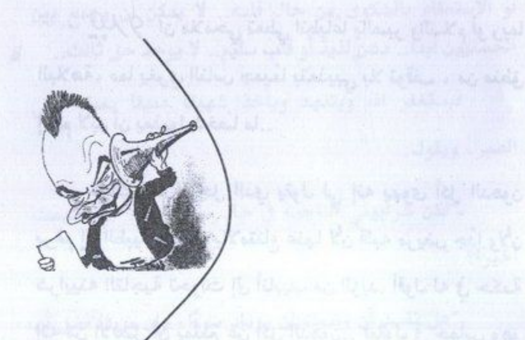
قاعدة المسئولين: المسئولون الوحيدون الذين تفيدك مقابلتهم فعلاً لا يقابلون الناس.

قانون إيقاف السيارة: لو وجدت بسهولة مكانًا توقف فيه سيارتك، فأنت لن تجدها فيما بعد.

قانون الصحيفة: الصحيفة التي وضعتها على الأرض لتمنع تساقط الطلاء بها أخبار مهمة فعلاً.

هذه بعض القوانين وأعدك بالمزيد في مرات أخرى!





لا تحكوا لي



يبدو أن ملامحي تعطي انطباعًا بالصبر والسلام أو ربما البلاهة، مما يغري الناس جميعًا بتعذيبي بلا توقف ، من منطق إنهم لابد أن يعذبوا شخصًا ما..

هناك ذلك الرجل الذي يقول لي إنه يهوى أكل الدهون برغم إن الطبيب أوصاه بالامتناع عنها لأن قلبه مريض جدًا ولأن شرايينه التاجية تحولت إلى أنابيب من الزبد. أقول له في حكمة إنه من الأفضل أن يمتنع عن أكل الدهون.. فيقول في حماس وهو ينثر لعابه في وجهي:

-"أنت لا تفهم ما قلت لك.. شراييني التاجية مسدودة تمامًا.. هذا الكولستيرول موشك على قتلي"

-"هذا يؤكد وجهة نظر الطبيب.."

-"بل يؤكد أنك لا تصغي لي.. أنا أحب الدهون.. هذه نقطة.. والنقطة الأخرى هي أن شراييني التاجية مسدودة.."

أقول له في صبر إن عليه الاختيار بين الاستمتاع بالدهون أو الاستمتاع بالشكوى من حال قلبه.. لا يمكن أن يجمع بين الحسنيين أبدًا.. دهن لذيذ أو قلب سليم.. لا يوجد حل ثالث..

فيستغفر الله ويتنهد ويأخذ شهيقا عميقا يعينه على الصبر، ويقول:

-"لكن شراييني التاجية في حال سيئة جدًا.. هل فهمت أخيرًا؟.."

-"هل تقصد أن وضعك لن يزداد سوءًا، وإن من الأفضل أن تستمتع بكل شيء ما دامت هذه هي النهاية؟"

فيبصق على الأرض في غيظ:

-"يا أخي فأل الله ولا فألك.. أنت رجل مثقف ويجب أن تنتقي كلماتك.. أنا أحب الدهون.. بل إنني آكل الزبد مباشرة بلا خبز، وأمقت شرائح اللحم الأحمر.."

-"فلتنعم بالدهن إذن.."

-"لكن هناك مشكلة شراييني التاجية.. أنت رجل متعلم وطبيب ومستحيل أن تجهل خطر ذلك على صحتي.."

في النهاية تكتشف أنك أضعت ساعة كاملة ولم تفهم بعد ما يريد..

خذ مثلاً صديقي هذا الذي يصر على أن يحكي لي حلمًا رآه.. يحكيه على مدى ساعة ونصف تقريبًا:

-"كنت أنا وسيد عبد الحفيظ نمشي في بستان مليء بالأزهار.. ثم هبط أبي من السماء بجناحين وهو يلبس ثوبًا أبيض في أبيض.. أنت تعرف أن أبي كان مدمن مخدرات ممتنعًا عن أداء الشعائر الدينية مولعًا بالنساء ويختلس أموال الشركة التي يعمل فيها، لكني كنت مؤمنًا بأنه نقي النفس وأن مثواه الجنة برغم كل شيء.. نزل أبي من السماء ودعاني لأكل الفاصوليا.. غريب أن يذكر الفاصوليا بالذات فهو كان يحبها. ثم ظهرت عمتي وهي تمشي مع جيفارا.. جيفارا الثائر الشهير.. أنت تعرفه.. كان فمه – فم جيفارا لا أبي – ملوثًا بالفاصوليا

وعرض علي أن أشاركه الأكل.. ثم ظهر الإسكندر الأكبر وأعلن أنه يحب عمتي وبدأ يتبارز مع جيفارا بالنبابيت.. هذا لا يروق طبعًا لسيد عبد الحفيظ. أنت تعرف طبع سيد عبد الحفيظ.. لهذا ركب النعامة وانطلق.."

طبعًا أستمع له وأنا أرسم ابتسامة اهتمام على وجهي، مع ترديد:

-"إم م.. ام ممم.. إم م.."

وطبعًا لا أستطيع أن أخبره أنني لا أذكر شيئًا عن سيد عبد الحفيظ ولا طباعه التي تجعله يركب النعام عندما يغضب..

بعد يوم واحد يتصل بي هاتفيًا وأنا مشغول جدًا، ليقول لي في ذهول:

-"يبدو لي أن أبي يناديني من القبر.. حلمت أمس أنني آكل معه الفاصوليا، وهو يقول لي: كف عن الأكل يا حبيبي فقد تأخرت عن موعدك.. هنا ظهر سيد عبد الحفيظ، وأنت تعرف

طباعه.. لهذا طلب مني أبي أن ننهي الجلسة فورًا.. وصحوت من النوم ومذاق الفاصوليا على شفتي.. مستحيل أن يكون هذا حلمًا.. هذا ليس حلمًا.. "

لا أذكر كم مرة حكى لي هذا الحلم منذ العام 1978 وبرغم هذا لم يمت للأسف ولم يلب نداء أبيه قط. لا أجرؤ على أن أصارحه برأيي هذا ولا إنني مقتنع برأي فرويد حول أن الأحلام عادم يخرج فضلات الروح ورغباتها المكبوتة لا أكثر.. ربما هو يأكل الفاصوليا في الحلم لأنه فعلاً يتمنى أكل الفاصوليا.. لكن كلامه ينبع من اعتقاد كل إنسان إنه ليس حيوانًا كمن حوله، وإنه يتمتع بدرجة عالية من النقاء والشفافية والاتصال بالأثير..

-"ليس هذا بأغرب من حلم آخر.. هل تذكر (مروة) زوجتي الأولى؟.. بعدها تزوجت (عفاف) ثم (هالة) ثم (عزة) ثم (نادية) ثم (سامية).. لكن مروة ظلت في خاطري.. أمس رأيتها.. الخ.. الخ.. "

وتبدأ وصلة حلم جديدة مدتها ساعة ونصف.. الرحمة من فضلك.. القنوات الفضائية تقدم فاصلاً ثم تعود.. الثلاجة الكهربية يستريح موتورها من وقت لآخر.. لكن صاحبي هذا مستمر للأبد..

أرجو من الجميع أن يترفقوا بي، فلا يفرطوا دون هدف في استخدام هذا العضو الطري الزلق المسمى باللسان، فإن لم يستطيعوا فليحكوا لي مواضيع ليس فيها فاصوليا أو دهن أو سيد عبد الحفيظ!





غدًا أجد ما يلهمني

اليوم قررت أن أكتب روايتي العظمى.. الرواية التي ستضمن لي جائزة نوبل للعام القادم. ربما تتوقف جائزة نوبل نهائيًا لأن اللجنة ستجد أن هذه ذروة الإبداع البشري ولا ذروة بعدها..

ابتعت جهاز كمبيوتر محمولاً كلفني ألف دولار، ورحت أمشي به في كل مكان بانتظار لحظة الإلهام العظمى.. يجب أن أراقب الحياة.. سوف تلهمني الحياة.. (تشيكوف) استوحى شخصية مهمة جدًا من مدير مكتب بريد مولع بالصراخ والسباب.. (بهاء طاهر) كتب واحة الغروب عندما قرأ عن حادثة تدمير معبد فرعوني في عصر (عرابي). يجب أن أفتح عيني جيدًا..

بينما أنا أتأهب للنزول اتصلت بي (هيام) لتقول بصوت مبحوح: "عرفت أنني أصبت بالإيدز.. لقد أصابني زوجي بالعدوى.. أعرف الآن أنه يخونني.. سوف أنتحر الآن بابتلاع مئة قرص من البانادول.."

نصحتها بعدم الانتحار لأن الحياة جميلة ووضعت السماعة.. لا وقت عندي لهذا السخف.. أنا أشق الطريق نحو المجد الأدبي.

على الدرج قابلت جاري (سليمان).. كان مذعورًا وقال لي وهو يلطم خديه: "الخزانة سرقت!.. ربع مليون جنيه سرق، والغريب أن السارق لم يفتح باب الشقة ولا النافذة.. كيف فعل ذلك؟"

نصحته بأن يطلب الشرطة فلا وقت لدي..

ركبت سيارتي وكدت أدير المحرك، عندما سمعت من يصرخ.. ومن تحتها وثب ذلك الشاب شرس المظهر والذي يحمل (بنسة) في يده.. يبدو أنه كان يريد أن يقطع شيئًا عندما فوجئ بي أركب السيارة.. يتلف الفرامل؟.. وما السبب؟

في الطريق للعمل قابلت زحامًا شنيعًا مع قدر لا بأس به من الذعر. قال أحد المتسكعين دون أن أسأله:

ـ"طبق طائر كاد يهبط في وسط الميدان.. الكثيرون رأوه..

لكنه كما ظهر فجأة اختفى فجأة.. الناس حائرة بين الشعور بأنه حقيقي وبين الشعور بأنها هلوسة.."

هنا قال رجل آخر:

ـ"ولو كانت هلوسة فما سببها؟.. هل ألقى أحدهم بغاز معين علينا؟"

بصراحة لا وقت عندي لهذا السخف.. طبق طائر؟.. كلام شديد السوقية..

عندما دخلت الشركة وجدت ضوضاء ورجال شرطة في كل مكان.. قالوا لي إن مدير الحسابات اختلس مالاً وعندما انكشف أمره أغلق المكتب على نفسه وفجر رأسه بالرصاص..

لماذا تصر هذه الأمور على أن تقع اليوم؟.. اليوم الذي قررت فيه أن أكون أديبًا عظيمًا؟

تتقدم مني (لمياء) صديقتي في العمل.. تقول إنها تحبني بجنون وتريد أن أتزوجها.. أنا متزوج وهي كذلك، لكنها حصلت على الطلاق من زوجها وتريد أن تكون زوجة ثانية لي..

قلت لها في ذعر:

ـ"كان عليك أن تخبريني قبل الطلاق.. من قال إني أحبك؟"

ـ"إذن أنت لا تحبني؟"

وانفجرت في البكاء وغادرت المكتب.. لو وثبت من النافذة لكان هذا يوم الانتحار العالمي فعلاً..

بعد رحيل الشرطة هجم على الشركة مجموعة من الرجال المسلحين ببنادق آلية وهم كذلك ملثمون، وطلبوا من الصراف أن يملأ لهم حقيبة بالمال.حاول أحد الموظفين أن يطلب الشرطة ودوت السرينة تحت النافذة، لهذا اضطر اللصوص إلى أخذ (لمياء) رهينة معهم.. جميل أنها لم تنتحر لكن أرجو أن يقتلوها لتستريح..

بعض الهدوء أرجوكم.. أريد بعض الهدوء.. أريد أن أؤلف قصتي..

عامل بالشركة يدخل ليصرخ.. يؤكد لي أن شبح رجل مقتول يظهر في المطبخ.. يبدو أن هذا الرجل كان عاملا سابقا وقد اشتعلت

فيه النيران فلم يستطع الهرب.. منذ تلك اللحظة يظهر في المطبخ كل ليلة.. الجديد أنه يحاول إشعال الموقد وحرق العامل الجديد..

هذه المرة فاض بي فأغلقت الكمبيوتر وغادرت المكان متسللاً..

في طريقي للبيت خيل لي أن ذلك الطبق الطائر يقف في الميدان فعلاً، وكائنات خضراء اللون لها هوائيان على الرأس تخرج منه لتخاطب الناس وهي تلوح ببنادق الليزر..

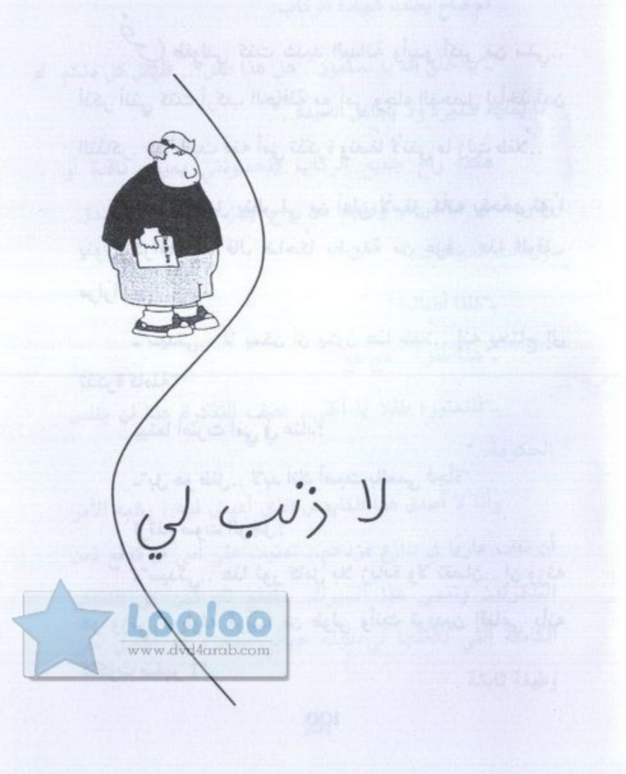
لا وقت عندي لهذا الهراء..

في المساء دخلت زوجتي المكتب لتجدني أحدق في الشاشة الخالية لجهاز الكمبيوتر.. نظرت لي في عدم فهم فقلت لها بصوت واهن:

-"أبحث عن إلهام لروايتي الجديدة.. أبحث حولي وأنظر جيدًا، لكني للأسف لا أجد أي إلهام في هذه الحياة الرتيبة التي لا يحدث فيها شيء.. لو حدث أمامي شيء مثير.. شيء مثير واحد لتدفق إلهامي كالشلال.."

وأغلقت الجهاز وقلت لها وأنا أتثاءب ناهضًا نحو غرفة النوم:

-"ربما غدًا أجد ما يلهمني فأكتب تلك الرواية العظمى.. يجب أن تعرفي أنك متزوجة من فنان يا عزيزتي.. فنان حقيقي!"


لا ذنب لي

في طفولتي كنت شديد البدانة وأبدو أكبر من سني.. أذكر أنني كنت أركب الحافلة مع أمي وجاء المحصل ليأخذ ثمن التذاكر. هنا طلبت منه أمي تذكرة ونصفاً لأنني ما زلت طفلاً..

راح المحصل ينظر لي من أعلى لأسفل كأنه يفحص ثورًا ينوي شراءه، ثم قال ضاحكاً بطريقة من عرف هذا الموقف مرارًا:

ـ"سيدتي.. لا يمكن أن يكون هذا طفلاً.. إنه يحتاج إلى تذكرة كاملة"

بينما أصرت أمي في عناد:

ـ"بل هو طفل.. لابد أنك أصبت بالعمى فجأة"

ارتفع صوت الرجل:

ـ"سيدتي.. هذا ثور كامل بلا زيادة ولا نقصان.. إن وزنه هو وزني، وطوله قريب من طولي وأنت تريدين إقناعي بأنه كتكوت صغير!"

ثم صاح يطلب شهادة الركاب:

ـ"يا خلق الله يا مسلمون.. هل هذا طفل؟.. فليقل كل منكم ما يمليه ضميره ولا يجامل السيدة.."

هكذا راح جميع الركاب يفحصونني بعيون ناقدة أو كارهة أو ساخرة.. ومنهم من راح يهز رأسه غير مصدق.. وتعالت الصيحات:

ـ"كلنا أطفال!"

ـ"هذا طفل؟.. هع هع!"

ـ"فلتعتبره طفلاً يا أخي.. نصف التذكرة هذا لن يفلس الحكومة.."

وأنا لا أصدق هذا الكابوس الذي أعيش فيه.. يشبه الأمر أن تقف عاريًا في شارع مزدحم.. تمنيت على أمي أن تدفع ثمن التذكرتين وتنهي هذا السيرك. سأدفع لك ثمن كل التذاكر الكاملة التي دفعتها لي طيلة حياتي بمجرد أن أحصل على وظيفة ثابتة.

لكن أمي كانت مصرة على ألا تُخدع.. وقد دفعني تمسكها بالمبدأ هذا إلى أن أتلقى سيلاً من الشتائم على رأسي.. منذ ذلك الحين تعلمت أنك يمكن أن تظل صامتًا وتقف في الظل محاولاً أن تحتل اقل حيز من الفراغ، وبرغم هذا ينهال عليك السباب..

في إحدى الندوات التي تناقش أعمال رسام كاريكاتور شاب واعد، استضافوا فنان كاريكاتور عجوزًا ضيق الخلق. كان أول سؤال وجهه الحضور للرسام العجوز هو:

-"في رأيك كم يمثل هذا الفنان الشاب بالنسبة للكاريكاتور العربي؟"

عرفت على الفور ما سيحدث.. لقد انفجر الرجل صارخًا:

-"صفر في المائة!.. إنه لا يمثل سوى صفر في المائة!.. إنه لا شيء على الإطلاق"

والفنان الشاب الواعد يجلس محرجًا محمر الأذنين، فهو لم يفعل أي شيء ولم يدع شيئًا، وفجأة وجد نفسه يهُان بلا داع.. إن هذا السؤال السخيف من الأسئلة التي تستجدي السباب استجداء..

أذكر أنني وجدت ذات مرة في أحد مواقع الإنترنت من يمتدحني بحرارة، إلى درجة أنه يعتبرني من أهم الكتاب العرب، وأنه من المفترض أن يعرفني الغرب ليلقي الحمقى في القمامة بما لديهم من كتب هيمنجواي وكافكا وتولستوي وإميل زولا وجيمس جويس وهوميروس وسومرست موم وفلوبير، ليضعوا كتبي مكانها..

طبعًا لم أشعر بأي سرور، أولاً لأن هذا الكلام يبعد عن الحقيقة بعدنا عن كوكبة القنطورس في الفضاء الخارجي، ولأنني أعرف ما سيحدث بالضبط..

هكذا جلست في الحافلة.. أعني جلست في مكتبي صامتًا وأنا أقرأ الشتائم التي تنهال على رأسي على شبكة الإنترنت.. من هذا الكاتب الضحل؟.. من هذا التافه؟.. هذا الذي لا يعرف كيف يكتب جملة واحدة متماسكة.. إنه الأغبى والأكثر إملالاً والأكثر ضحالة وادعاء.. تقريبًا دخل الموقع ألف شخص متحمس ليكتب عبارات السباب في شخصي الكريم ثم يرحل، لدرجة أنني توقعت أن يقول أحدهم: هذا ثور كامل بلا زيادة ولا نقصان..

حكيت هذه القصة لصديق لي، فالتمعت عيناه وراح يهتز بضحك مكتوم، ثم اعترف لي بأنه هو من كتب هذا المديح لي باسم مستعار..

-"لقد أردت أن أجاملك لكن النتيجة كانت عكسية تمامًا..!"

هذا نموذج للشخص الذي يجلب على رأسك المشاكل بلا ذنب لك.

هكذا عرفت الطريقة المثلى كي تنهال الشتائم على خصومك.. امتدحهم بحرارة.. امتدحهم بعنف.. امتدحهم مع الكثير من المبالغة.. ثم استرخ في مقعدك وراقب كيف يتم تمزيقهم إربًا..

صدقوني.. قبل أن توجهوا لي الشتائم تأكدوا أولاً من أنه لا ذنب لي في هذا كله.. لقد ظللت صامتًا وابتعدت عن الحرب، لكن الحرب جاءت لي حيث أنا!



المزيد من القوانين الخفية

مع مزيد من تلك القوانين الفيزيائية الخفية التي تحرك حياتنا. في الغرب يطلقون عليها اسم (قوانين مورفي)، ومصدرها قانون أطلقه مهندس هناك يقضي بأنه: "كل ما يمكن أن يفشل سوف يفشل!". هناك تعديل مهم يقضي بأن "مورفي كان متفائلاً!" بمعنى أن الحقيقة أسوأ من هذا. وهناك قانون مورفي الخاص بالنشر الذي يقول: "لو كتبت تنتقد الدقة اللغوية أو التحرير لكتاب ما، فإن ما كتبته لابد أن يحوي خطأ لغويًا شنيعًا!". منذ ذلك الوقت توالت القوانين:

– لو سار كل شيء على ما يرام، فأنت لم تلحظ الخطأ فقط.

– الكون ليس غير مبال بالعلماء فقط.. إنه ضدهم على طول الخط.

– أي سلك تقطعه حسب طول معين هو أقصر من اللازم.

– احتمال حدوث خطأ يتناسب طرديًا مع الضرر الذي سيسببه هذا الخطأ.

– عندما يفشل كل شيء آخر اقرأ التعليمات.

– الرجل الذي يبتسم عند الفشل، يعرف رجلاً آخر يلقي باللوم عليه.

– لابد أن تسقط الشطيرة على الجانب الذي دهنته بالزبد. وهذا يتناسب طرديًا مع ثمن السجادة.

– الأمر يستغرق وقتًا أكثر مما توقعت له، ومهما فعلت.

– من سوء الحظ أن تكون متشائمًا.

– قانون لورا: الطفل لا يقيء وهو في الحمام أبدًا.

– قانون النوافذ: القذارة على الجانب الآخر من الزجاج دائمًا!

– قانون الذاكرة: فرصة نسيان شيء مهم تتناسب مع.. مع.. مع....

– لو لم يسر الأمر حسب الخطة، فلا توجد خطة أصلاً.

– ابتسم.. فالغد أسوأ.

– الأشياء تتلف حسب قيمتها.

– لا يمكن أن تحمي عملك من الحمقى، لأن الحمقى عباقرة.

– كل حل يخلق مشاكل جديدة!

– الشيء الذي يقع يقع في المكان الذي يسبب فيه أكبر ضرر ممكن.

– بعد ما تبتاع بديلاً للشيء الذي بحثت عنه في كل مكان ولم تجده، يظهر الشيء الأصلي.

– بمجرد شراء تلك السلعة النادرة، سوف تجدها معروضة في كل مكان وأرخص.

– صمم شيئًا يستطيع حتى المعتوهين استعماله، ولسوف لا يستعمله سوى المعتوهين.

– كل شيء ممتع في الحياة غير قانوني أو غير أخلاقي أو يسبب السمنة.

– كل شيء يقع في الحمام لابد أن يسقط في المرحاض.

– أي شيء تضعه في مكان أمين، لن تجده أبدًا ثانية.

– الأفكار العظيمة لا نتذكرها أبدًا، والأفكار الغبية لا ننساها أبدًا.

– الغسالة لا تبتلع إلا فردة واحدة من كل زوج من الجوارب.

– الضوء في نهاية النفق قطار قادم!

– صندوق الخطابات دائمًا في الناحية الأخرى من الشارع.

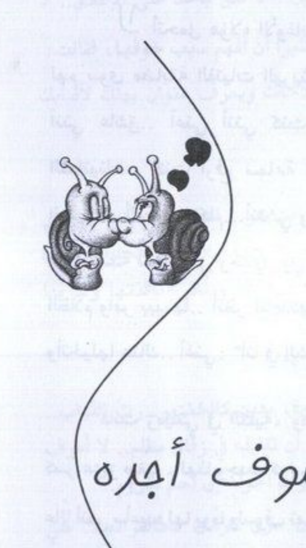
– الفوضى تربح دائمًا لأنها أفضل تنظيمًا!

– لو لم تنجح، تخلص من أية أدلة على أنك حاولت.

– لكل قاعدة شواذ ما عدا هذه القاعدة.

– الرجل الذي يسبقك مباشرة في طابور المصرف، يقوم بأعقد إجراءات ممكنة.

– معرفتك بقوانين مورفي لن يساعدك في شيء!



سوف أجده

لا أتحمل هؤلاء الأوغاد معدومي الضمير الذين لا هم لهم سوى مضايقة الفتيات البريئات والتحرش بهن. دعك من أنني عاشق.. أعني أنني كنت عاشقاً في ذلك الوقت من الثمانينات.. كنت أرفع سماعة الهاتف وأنتظر سماع صوتها الرقيق تسأل عن المتكلم.. أنتشي وأغمض عيني متخيلاً أن جوقة من الملائكة تعزف لي وحدي. وفي الحادية عشرة مساء أخرج في الظلام وأمر ببيتها.. أنظر لنافذتها المغلقة والضوء من خصاصها وأتخيلها هناك.. أغني: "أنا في الشارع الذي تعيشين فيه".

كانت زميلتي في الكلية، وكنت أداري حبها عن الآخرين كسرّ عزيز صغير، لهذا وجدت كراس محاضراتها ذات مرة.. أخذته عالمًا أنني سأعيده لها يومًا ولسوف تدرك كم أنا أمين شهم..

أخيرًا تكلمت معها وصرنا صديقين.. لكني لم أتماد طبعًا ولم أعلن عن عواطفي حتى تظل تلقائية معي. لاحظت أنها تحمل

خوفًا غير طبيعي من الآخرين.. لا تثق بأحد على الإطلاق.. لا أعرف السبب، وقد حاولت كثيرًا أن أفهم سبب خوفها، فقالت:

-"لو كان هناك من يلاحقك ويعرف عنوان بيتك لأصابك الذعر مثلي"

-"من هذا الشيطان ؟"

قالت إنها لا تعرف من هو.. الجيران حكوا لها عن شخص مخيف المنظر يمشي في شارعها ليلاً — في الحادية عشرة تقريبًا — وهو يصدر أصواتًا مرعبة، وينظر لنافذتها وقد بدا عليه التوحش..

-"كيف يبدو هذا الوغد ؟"

يقولون إنه يضع نظارة، بدين كالخنزير..رثّ الثياب.. باختصار هو شخص لا تتمنى أن تقابله في زقاق مظلم.. لا أعرف من هو لكني سأجده ويومها سوف أحوله إلى لحم مفروم..

قالت لي إن هناك من سرق كراس محاضراتها.. هي نسيته في قاعة المحاضرات فلما عادت لم تجد له أثرًا.. المشكلة أن هذا الكراس يحوي معلومات عنها.. معلومات مهمة.. إذن هناك من يسرق كراسات محاضراتها سواي ؟.. هذا مخيف..

أما الكارثة الكبرى فهي تلك المكالمات التي لا تسمع فيها صوتًا.. ترفع السماعة فيجيء صوت لهاث مخيف من الجانب الآخر.. لابد أنه مريض نفسي..

استبد بي الجنون.. هذا المخبول يجب أن يُعاقب..

هكذا رحت أقف في شارعها وقتًا أطول من اللازم ، أنتظر قدوم هذا الوغد البدين وأنا أحمل عصا ثقيلة أحطم بها وجهه.. لم يظهر لحسن حظه، لكن أثار ذهولي أنها تحكي عن أن زياراته لم تتوقف.. تقول إنه صار مسلحًا، وإن أباها يخشى النزول له لكنه قرر أن يطلب الشرطة..

كانت تنهار بلا توقف.. صارت حياتها جحيمًا، وصار صوت حفيف أية ورقة شجر جوارها كفيلاً بجعلها تصرخ.. كانت تزوي رعبًا وأنا أزوي حسرة..

في اليوم التالي رأيت سيارة الشرطة تقف في الظلام قرب بيتها فسرني هذا، وابتعدت تاركًا للعدالة أن تأخذ مجراها.. الشرطة أقدر مني على التعامل مع الأشقياء..

قالت لي حبيبتي إن من يلاحقها كف عن الاتصال الليلي والمكالمات الصامتة.. سرني هذا كثيرًا.. ذكرني كلامها عن الهاتف بأن علي المرور على شركة الاتصال لأبلغ عن عطل.. الهاتف معطل منذ ثلاثة أسابيع ولا أحد يهتم بسماع شكواي..

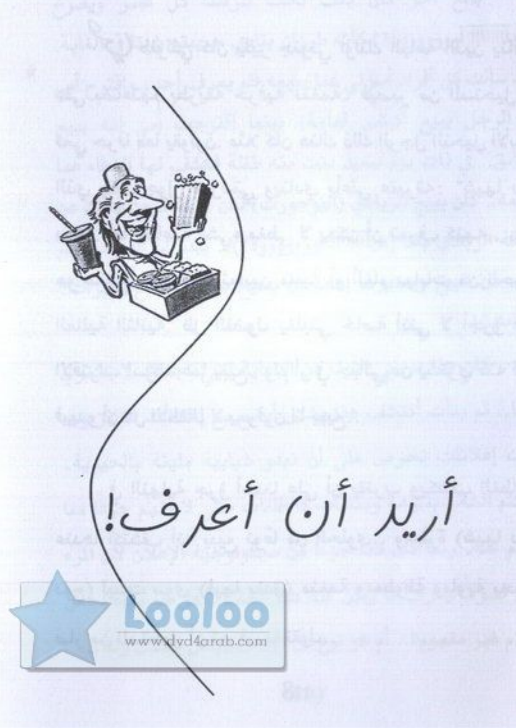
جاء اليوم الذي عرفت فيه إنني أحبها، وعرفت أنها تميل لي..

قالت لي وهي ترتجف:

-"برغم تلك الفترة المرعبة التي مررت بها فإنني سعيدة لأنك كنت هناك دائمًا لتحميني"

قلت لها وأنا أعني ما أقول:

-"لا أعرف اسم ذلك الذي هددك ولا شكله، لكني أعرف يقينًا أنه سعيد الحظ لأنني لم ألقه.. كان سيبيت في المشرحة بينما أشنق أنا.."



اليوم هي قد تزوجت وصارت بدينة كالخرتيت، ولديها أربعة أطفال تصفعهم طيلة الوقت، وأنا تزوجت ، لكن كراس محاضراتها ما زال معي.. عندما امسكه في يدي أتذكر آسفاً أن هناك مخبولاً ما يحتفظ بكراس آخر من كراسات محاضراتها، عندها يغلي دمي.. وأتساءل: من هو ؟.. أين هو ؟

في طفولتي كان يثير جنوني أولئك الباعة الذين ينادون على بضاعتهم بطريقة حرفية منغمة، فيصير من المستحيل أن تعي حرفًا مما يقولون. مثلاً كان هناك ذلك الرجل النحيل الأسمر الذي يقف جوار مدرستي وينادي بأعلى عقيرته: "شيها دوج دوج". أما بضاعته فشيء مغطى لا يمكن أن تعرف كنهه.. ربما هو ضفادع محمرة أو ثعابين مقلية أو ألغام دبابات من الحرب العالمية الثانية. ظل الفضول يغلبني خاصة أنني لا أجرؤ على الاقتراب لسؤاله عما يبيع، ولم أر في حياتي من يشتري منه قط، فيبدو أن كل الأطفال لا يعرفون ما يبيع..

في النهاية جرؤ أحدنا على أن يقترب ويكشف الغطاء.. عندها اكتشف أنه يبيع نوعًا من الحلوى.. وعبارة (شيها دوج دوج) ليست سوى (فيها بندق) منغمة وممطوطة وملوية بحيث صار من المستحيل أن تعرف ما تقول..

بائع آخر كان يقف تحت شرفتنا كل عصر ويصرخ (هيااااااا أووووووه!) كأنه طرزان ينادي حبيبته شيتا في الغابة. وقد سألت كل أفراد أسرتي عما يبيعه فلم يعرف أحد، واقترح أبي أن الرجل يبيع أكياس قمامة، بينما اقترحت أمي انه يبيع مشانق.. في ذات يوم سعيد دنت منه طفلة فكشف لها الغطاء عما يبيعه.. كان يبيع الزبادي (اليوجورت) لكن لا تسأل من فضلك عن علاقة الزبادي بالـ (هيااااااا أووووووه!).. يبدو أن الصيحة أهم عنده من البيع ويعتبرها إهانة أن يصيح بصوت واضح النبرات: (زبادي)!

كان هذا درسي الأول عن الدعاية التي تجعلك لا تشتري شيئًا.. ثم بدأت أكتشف هذا بشكل أوضح مع إعلانات التلفزيون. هناك إعلانات تحرص على أن تبدو شبابية مليئة بالحيوية، فيتكلم الشاب بسرعة وبكلمات كالطلقات حتى لا تفهم حرفًا مما يتكلم عنه. ربما كان هذا جزءًا من سيكولوجية الإعلان لأن المرء يجن فضولاً ليعرف ما يعلن عنه هذا الشاب.. هل هو دواء لجعل الكلام غير مفهوم؟.. أم هو نوع من الدهان يجعل اللسان زلقًا؟..

اشتهرت شركة (بنيتون) للملابس الجاهزة بهذه الإعلانات العجيبة التي أثارت جدلاً، فتارة تقدم لك بألوان ممتازة رجلاً يلتهم سمك القرش جسده الممزق، وتارة تقدم محتضرًا يحيط به أفراد الأسرة الباكون، وتارة صورة رضيع ملوث بالدم.. مع عبارة صغيرة تقول: "الألوان المتحدة من بنيتون". لابد أن الموضوع خضع لدراسة نفسية مدققة لكن بصراحة لا أفهم.. معلوماتي أن الإعلان يجب أن يكون جميلاً ولا يكون ضربة بالمطرقة على الرأس لتتذكر للأبد.. على كل حال أنت تعرف أنهم يعلنون عن ثياب..

يبلغ فن الإعلان الذي يجعلك لا تبتاع السلعة ذروته مع اللافتات الإعلانية على الطريق. على الطريق السريع حيث سرعة سيارتك لا تقل عن مئة كيلومتر ترى من بعيد تلك المرأة التي تضحك في رضا.. لماذا؟.. تقترب أكثر فترى اسم السلعة التي أسعدتها لهذا الحد لكنها مكتوبة بخط صغير جدًا.. ولا وقت للتدقيق لأن السيارة التي خلفك تسير بنفس سرعتك.. لو أبطأت أو انحرفت لليمين فجأة فهي النهاية على الأرجح.. حتى لو

نجوت لكان من الصعب أن تفسر أنك أحدثت هذه الكارثة لتعرف ما السلعة التي أعلنوا عنها..

أما في وسط المدينة والزحام فالأمر يختلف.. أنت محشور وسط مئات السيارات وهناك لافتة مبهمة بعيدة تعدك بالسعادة الأبدية.. لا يمكن أن ترفع عينيك عن الطريق لتقرأ.. فإذا كنت محظوظًا واستطعت أن تعرف ما يعلنون عنه لوجدت رقم هاتف طويلاً.. لا يمكن أن تتذكره أو تدونه..

لو ذهبت لذات المكان راجلاً لاكتشفت أن عليك أن تقف وسط السيارات لتقرأ اللافتة، ومعنى هذا أنها النهاية.. بينما عندما تقف تحتها فهي غير مقروءة على الإطلاق.. حتى بدأت أفكر جديًا في أن آخذ كاميرا رقمية لألتقط صورة سريعة للافتة أحللها فيما بعد.. هناك حل أسهل هو أن اطلب ممن يركب جواري سواء كان صديقي أو زوجتي أن يدون الرقم على ورقة بسرعة لكنك تكتشف أنه أو أنها مصابة ببطء فهم شديد:

-"أية لافتة؟"

-"هذه اللافتة؟"

-"هل تقصد تلك التي على اليسار؟"

-"بل اليمين.. عليها رقم هاتف.."

-"هناك لافتتان على اليمين.."

-"اللافتة التي تقول: سوف نخلصك من رائحة القدمين للأبد.. فقط اتصل برقم.. رقم ماذا؟"

هنا ينظر لي صاحبي أو تنظر لي زوجتي وتقول في حياء:

-"ألم يخبرك أحد أنني مصابة بقصر نظر؟"

هكذا تكون الفرصة قد ضاعت.. وبعد أسبوع تختفي اللافتة لتأتي واحدة أخرى أكثر غموضًا..

نعم.. الدعاية فن معقد ولا أفهم الكثير فيه، لكنني فعلاً أريد أن أعرف هذا الذي يعلنون عنه.. هذا من أبسط حقوقي كإنسان. ولا شك أنني أضعت الكثير من الفرص النادرة بسبب تحذلق مصممي الدعاية هذا.

استرخ من فضلك

فشلت تمامًا في طفولتي ومراهقتي أن أتعلم قيادة الدراجات. أنت تجلس على المقعد ويداك على المقود وهناك من يمسك بك من الخلف.. يدفعك بضعة أمتار ثم يقول لك:

-"هيا!"

ويتركك.. تندفع للحظة حاسبًا أنك فهمت اللعبة وصرت ملكًا أو نسرًا محلقًا. في اللحظة التالية أنت على الأرض تنزف من عدة مواضع وكل عظامك مهشمة، بينما من كان يعلمك يقول لك:

-"أحمق!.. كان يجب أن تسترخي!.. لا تشد نفسك.. تصرف كأنك كنت تفعل هذا طيلة حياتك!"

الاسترخاء!.. هذا الفن الذي لم أستطع قط فهم مفاتيحه ولا ممارسته بنجاح، لكن من الواضح أنك لا يمكن أن تفعل أي شيء في هذا العالم من دونه. أنا من الطراز العصبي الذي لا ينام قبل أن ينهض عشرين مرة ويشد سروال منامته على بطنه عشر

مرات، ولو وجد تجعيدة واحدة في الملاءة فهي النهاية.. لا أجلس للقراءة إلا وأسعل عشرين مرة وأنهض ألف مرة.. شخص مثلي لا يمكن أن يسترخي..

الآن يأتي دور تعلم السباحة.. أنزل في الماء وأستعد.. هنا يقول لي مدرب السباحة:

-"استرخ!"

أنظر له في شك.. استرخاء هنا أيضًا؟.. مطلوب مني أن أسترخي إلى حد التحول إلى قطعة خشب طافية أو جثة غارقة.. أجرب هذا فأكتشف أنني انزلق لأسفل بلا توقف.. فجأة صار رأسي يلامس القاع وقدماي في الهواء... هكذا أجرب مئات المرات حتى نجحت في أن أطفو كالطحالب، وقد اعتبر المدرب هذا نصرًا مؤزرًا...

-"مشكلتك هي أنك لا تسترخي بما يكفي.. لو فعلت هذا لحملك الماء حملاً.."

فلأجرب رياضة مثل التنس.. قررت أن ألقي بالمضرب وأرحل لو طلب مني المدرب أن أسترخي.. لكنه لم يقلها لحسن الحظ.. راح يشرح لي طريقة تلقي الضربات وصدها، ثم قال ضاحكًا:

-"نلعب الآن مباراة قصيرة معًا.."

حمدت الله على أن هذه أول رياضة تحتاج إلى شخص متوتر عصبي يثب مترين في الهواء لو عوى كلب جواره، وضحكت ورفعت المضرب.. هنا قال المدرب بنفس الضحكة المعسولة:

-"والنصيحة الأخيرة لك هي أن.. تسترخي!"

هكذا ألقيت المضرب على الأرض وانصرفت..

ما دامت كل الرياضات ترغمك على الاسترخاء فلابد أن الرياضات هي هواية الكسالى. لابد أن ما يناسبني هو الاندماج في العمل أكثر..

لما تخرجت صرت طبيبًا.. جربت أن أمارس الجراحة، ووقفت فخورًا لأول مرة في حياتي أمام جرح مفتوح في بطن مريض بالتهاب الزائدة الدودية.. مددت إصبعي لأستخرج الزائدة، فقال الطبيب المقيم المسئول عن تدريبي:

-"أهم شيء يجب أن تتقنه في الجراحة هو الاسترخاء!.. تنفس من فمك بهدوء واخرج كل هذا التوتر!.. سوف تجد أن الجرح يغلق نفسه بنفسه!"

كنت أحسب الجراحة هي فن المتوترين، فاتضح أن الاسترخاء اللعين يطاردني هناك.. توتر كما تريد قبل الجراحة، لكن عندما تقف هناك على يمين المريض ويداك تمسكان بالمبضع فأنت فنان هادئ الجنان..

قررت أن أتعلم مناظير الجهاز الهضمي الضوئية، فكان أول درس تلقيته هو أن الاسترخاء مهم جدًا.. سوف يجد المنظار طريقه بنفسه.. التوتر يجعل الأمر عسيرًا ويدمي معدة المريض..

طبعًا لابد من الاسترخاء في قيادة السيارات.. قال لي أحد مدربي القيادة إن علي أن أريح ساعدي على النافذة اليسرى وأمسك المقود بيد واحدة في استرخاء. هذا بالطبع يتناقض مع كل ما نعرفه عن وضع الإمساك بعجلة القيادة، دعك من أنه خطأ.. المرة الأولى التي استرخيت فيها بهذا الشكل هشمت مؤخرة السيارة التي كانت أمامي موشكة على الانحراف لليسار.. للأسف لم يكن سائقها مسترخيًا مثلي..



هكذا قالوا لي إن علي أن أتعلم الاسترخاء قليلاً قبل أن ينفجر رأسي.. نصحني العالمون ببواطن الأمور بأن أدرس فلسفة (زن) اليابانية، بينما أهداني أحدهم كتابًا عن اليوجا حجمه يقرب من حجم الخروف الصغير. شعرت بتوتر عندما فكرت في أن علي قراءة هذا كله.. لكن لابد منه..

يبدو لي أن الحياة أعدت خصيصًا لمن يسترخون.. لا مجال لأمثالي. فتحت الكتاب وبدأت أقرأ الفصل الأول:

-"قبل أن تدرس اليوجا يجب أن تسترخي.. تسترخي إلى أقصى حد!"

هذا يعني أن علي أن أسترخي كي أتعلم طريقة الاسترخاء..هكذا تخلصت من الكتاب بكثير من العصبية، وجلست لأكتب هذا المقال . على الأقل لم تطالبني إدارة هذه المجلة الغراء بأن استرخي قبل أن أكتب مقالي وأدعو الله ألا يفعلوا.

بما أن قوانين مورفي ممتعة دائما، فإنني اخترت أن أترجم لك بعضها لتناسب يوم (فالنتين).. هذا اليوم العجيب الذي أقحم نفسه إقحامًا في جدول أعيادنا. وصار من حق خطيبتك أو زوجتك أن تنظر لك في كراهية ومقت لو أنك لم تجلب لها قلبًا أحمر من القطيفة أو (دبدوب) من الفراء.. ولماذا؟.. لأن الغربيين يفعلون هذا ولأنك لا تفهم نفسية الأنثى.. دعونا نسمع ما تقوله قوانين مورفي عن الحب:

– كل الفتيات المناسبات قد أخذن بالفعل، والفتاة المتروكة متروكة لسبب مهم.

– كلما ازداد لطف الشخص كان أبعد عن منالك.

– المال لا يشتري الحب، لكنه يضعك في موقع ممتاز لإجراء الصفقات.

– لو كان الشخص الآخر أجمل من أن يكون حقيقيًا فهو بالفعل كذلك.

– حينما تفهمك زوجتك فهي على الأرجح تعلمت ألا تصغي لك.

– لا تقم علاقة مع من هو أكثر جنونًا منك.

– الحب يضطهد الخجولين وقبيحي الوجه.

– هناك أشياء أفضل من الحب وأشياء أسوأ من الحب.. لكن لا شيء كالحب بالضبط.

– يجب أن تحب جيرانك.. لكن لا تدع أحدًا يقبض عليك!

– لا تتجادل مع المرأة وهي مرهقة.. ولا تتجادل معها وهي مسترخية..

– يمكن للرجل أن يكون سعيدًا مع أية امرأة ما دام لا يحبها!

– الحب وهم يقنعك أن هناك فارقًا بين امرأة وأخرى.

– لا تنسى المرأة الرجال الذين كان بوسعها الفوز بهم، بينما لا ينسى الرجل النساء اللاتي استحال عليه الفوز بهن.

– النجاح في الزواج لا يحتاج إلى أن تتزوج الشخص الصحيح.. النجاح يتطلب أن تكون أنت الشخص الصحيح!

– كل النساء هستيريات.. كل الرجال بلهاء.

– لو لم تجدي الأفضل فلتختاري الأنسب.

– يتناسب قبح الفتاة مع قربها منك.

– لا تتعب نفسك في المفاضلة بين فتاتين.. من المحتم أن تختار أسوأهما.

– لو قالت لك: فلنبق أصدقاء، فهي لن تتصل بك ثانية، ولو اتصلت فلن ترد على مكالمتك.

– لو قالت لك: يجب أن نتكلم، فقد انتهت قصة حبكما.

– الحب أعمى.. لكن جيرانك ليسوا كذلك.

– عندما تصارحها بأنك لن تقدر على الحياة من دونها، فلسوف تتركك في اليوم التالي.

– عندما تقول لك: لا تشتر لي شيئًا باهظ الثمن، وعندما تصدقها فعليك أن تستعد للطلاق.

– عندما يقلن لك إنك ألطف شخص عرفنه، فهذه هي قبلة الوداع.

– عندما تتزوج فتاة حسناء فإنها ستتحول لأمها، وعندما تتزوج فتاة بسيطة فإنها ستتحول لأبيها.

– النساء كالقوارب.. يحتجن لصيانة واهتمام ويكلفن الكثير من المال. الرجال كحافلات النقل العام.. لو أضعت واحدًا فالآخر قادم حالاً.

– محاميها دائمًا أبرع من محاميك.

– الزواج هو نهاية حياتك العاطفية الناجحة.



– الأشخاص المهذبون الهادئون هم الذين يتضح أن لديهم دستة من الجثث المقتولة في القبو.

– الكل يؤمن بالحب لكن يتساءل إن كان له وجود أصلاً.

– عندما ترفض الفتاة أن تتزوجك لأنك إنسان طيب، فهذا يشبه ألا تحصل على وظيفة لأن معك شهادات كثيرة.

مشكلتي هي أنني أحتفظ بذاكرة الأفيال.. لا أنسى شيئًا على الإطلاق خاصة إذا ما كان بعيدًا. لهذا أكون شاهدًا دائمًا على ما يطلق عليه علماء النفس (الذاكرة المزيفة). يحكي لي هذا الرجل عن التصفيق الذي استمر ساعتين بعد خطبته عام 1974 فأتذكر جيدًا أن أحدًا لم يصفق.. هو غير كذاب.. فقط زيفت ذاكرته الواقعة. يحكي لي هذا عن المبلغ الذي منحه للفقراء عام 1977 فأتذكر جيدًا أنه لم يعط مليمًا لأحد. ولنفس السبب أتذكر الماضي فأجد أنه كان كريهًا موجعًا في أحيان كثيرة..

صديقي هذا مثلاً يحكي لي عن روعة الماضي طيلة الوقت..

يشرب كوبًا من الشاي فيتنهد ويقول: ليس كالشاي الذي كنا نشربه في السبعينات.. كان له مذاق ورائحة تشمها على بعد أميال..

يسمع أغنية لمطرب شعبي قديم هو (أحمد عدوية) فيتنهد ويقول: تصور أننا كنا نتهكم على هذا الصوت في الماضي.. كم هو رائع!.. من المستحيل أن تسمع صوتًا كهذا..

ثم يتكلم عن حبيبته وكيف كانت رقيقة عذبة في الماضي..

الخلاصة التي تصل إليها من كلامه هي أن المجتمع كان جنة ترفرف فيها الملائكة، وتغرد فيها بلابل لها صوت (عدوية)، وكانت الفتيات أجمل والعواطف أكثر حرارة وللشاي رائحة مُسكرة.. يبدو لي أنه شرب كوبين من الشاي في الماضي، فسكر ومشى في الشوارع مترنحاً حتى كاد رجال الشرطة يقبضون عليه..

ما أذكره مثلاً أنه كان في شبابه يعاني عقدًا نفسية مختلفة، وكان في خلاف دائم مع أهله، وكان مفلسًا فقيرًا.. وقد تلقى جلسات علاج نفسي، وحاول الانتحار بابتلاع خمسة أقراص من الأسبيرين متظاهرًا – ذلك الأحمق – بأنه لا يعرف أنها جرعة قليلة جدًا.. دعك بالطبع من أنه لم يكن يحب الشاي أصلاً..

أما عن ذوقه السماعي، فقد كان يشكو بلا انقطاع من فساد الذوق العام وأن هذين المدعوين عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش يلوثان ذوق الشباب بلا توقف..

لكنه مصر على أنني لا أفقه شيئًا.. الماضي كان رائعًا إلى حد لا يوصف.. كانت السعادة تغمرنا..

يبدو لي أن هذا الداء يتجاوز صديقي إلى المجتمع كله، وهذه مشكلة حقيقية لأننا نترك أشياء جميلة فعلاً في حاضرنا تفلت، ونبكي بلا توقف على ماض لن يعود.. ثم نفطن إلى أن حاضرنا صار ماضيًا فنعود للصراخ والبكاء.. إن هواية البكاء على الأطلال ليست مقصورة على أجدادنا فقط.. كلنا نبكي على الأطلال، لكننا لا ننعم لحظة واحدة بما نعيش فيه من بيوت.. لابد أن تتهدم أولاً لندرك أنها رائعة..

كنت أتكلم وأنا أشغل في كاسيت السيارة أغنية لشعبان عبد الرحيم.. وقلت لصاحبي:

-"ليس هذا هو المثل الأفضل لما أقول، لكن لا تنكر أن صوته جميل.. لو وجد من يوظف هذا الصوت بشكل صحيح لصار ظاهرة في الغناء الشعبي.."

لم يقتنع..

جلسنا في كافتيريا فراح يتشمم الهواء، وقال في ضيق:

-"حتى الهواء لم يعد كهواء الماضي.. الهواء كان أفضل منذ عشرين عامًا.. "

-"ربما لأن أنفك كان أصغر عشرين عامًا.."

انتهت الأمسية وعدنا لبيوتنا.. عند منتصف الليل اتصل بي يسألني عن اسم أغنية شعبان عبد الرحيم التي كنت أشغلها في السيارة، ثم قال:

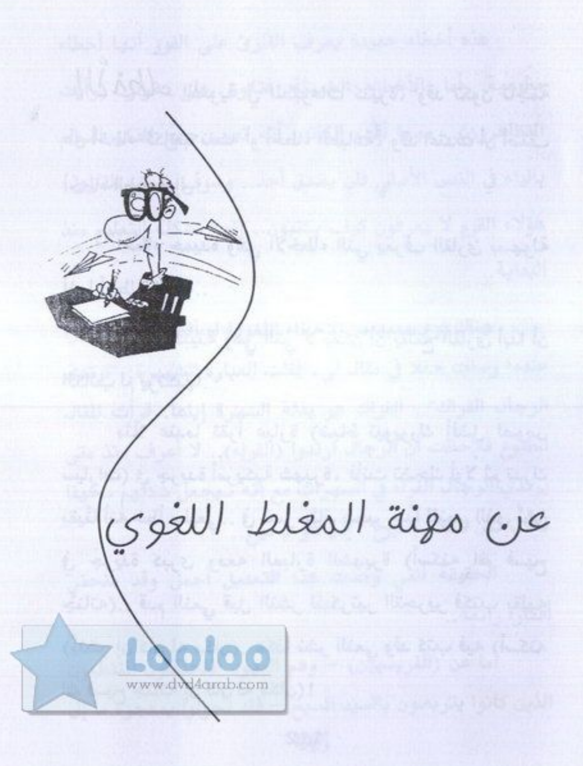
-"هذه الليلة كانت جميلة فعلا.. تذكرني بليالي شبابي.. تصبح على خير"

عندما وضعت سماعة الهاتف فكرت لحظة في معنى هذا اللغز.. ثم فطنت إلى أن أغنية شعبان عبد الرحيم صارت ماضيًا!.. لقد سمعها منذ ساعتين!.. كذلك تلك الجلسة صارت من جلسات الماضي!

الماضي كان جميلاً لكني مصر على أنه أسوأ من الحاضر بكثير.. ماذا عن الحرب؟.. ماذا عن طوابير الخبز ودجاج الجمعية؟.. ماذا عن صعوبة الاتصالات؟.. ماذا عن وجبة الطعام التي يجب أن تأكلها في يوم واحد لأنه لا توجد ثلاجة؟.. ماذا عن الزواج من امرأة لم ترها في حياتك لكنك رأيت أباها؟.. ماذا عن وجود قناة واحدة أبيض وأسود في التلفزيون؟.. ماذا عن العمل من دون كمبيوتر؟.. هل تتكلم عن القيم؟.. ماذا عن أغاني سيد درويش مثل (شفتي بتاكلني أنا في عرضك)؟.. هل تجدها راقية تمت للزمن الجميل حقاً؟.. والأمان؟.. ماذا عن (خُط الصعيد) الذي قتل ستين رجلاً قبل أن تقتله الشرطة؟

فقط للماضي ميزة واحدة هي أنه صار ماضيًا لهذا نشعر بالحنين له، بينما الحاضر موجود في كل مكان وفي كل لحظة لهذا نزهده..

لقد صارت الفقرة الأولى من هذا المقال ماضيًا جميلاً، لهذا أشعر بالحنين لذلك الزمن الذي كنت اكتب فيه فقرات جيدة كهذه!



عن مهنة المغلط اللغوي

الأخطاء اللغوية في المطبوعات كثيرة، وقد تكون ناجمة عن أخطاء الكاتب نفسه أو أخطاء الطباعة، وقد اعتدت أن أصنف أخطاء الطباعة إلى:

أخطاء حميدة وهي الأخطاء التي يعرف القارئ بسهولة أنها أخطاء طباعة..

أخطاء خبيثة وهي التي لا يمكن أن يقتنع القارئ أبدًا أن الكاتب لم يرتكبها.

مثلاً عندما تقرأ عبارة (ضباط نيويورك أفضل لصوص سيارات) في جريدة أمريكية شهيرة، فأنت تضحك أولاً ثم تدرك يقينًا أنه خطأ مطبعي.. في مصر مثال شهير جدًا للنعي الذي نُشر في جريدة كبرى ومعه العبارة الشهيرة (أسكنه الله فسيح جناته).. قدم النعي قبل النشر لسكرتير التحرير فكتب بقلمه (يُنشر إن كان له مكان). هكذا نشر النعي وقد كتب فيه (أسكنه الله فسيح جناته إن كان له مكان)!

هذه أخطاء حميدة يعرف القارئ على الفور أنها أخطاء مطبعية. أما الأخطاء الخبيثة فتكون على غرار (رأيت المتظاهرون).. مهما أقسم الكاتب أنه نصب جمع المذكر السالم بالياء في النص الأصلي فلن يصدق أحد.. وسوف يغمغم القارئ: هؤلاء القوم لا يعرفون كيف يكتبون.. إنها مشكلة التعليم منذ البداية.

هناك نوع جديد من الأخطاء اللغوية لم أفطن له إلا مؤخرًا عندما وصفت حفلاً في مقال لي، فقلت العبارة الشهيرة: "ارتدى الرجال الفراك".. الفراك هو بذلة السهرة إياها. قرأت المقال المطبوع فلاحظت أن الرجال ارتدوا (الفراء).. لا أعرف منذ متى يرتدي الرجال الفراء في السهرات مع أنه سيجعل شكلهم سخيفًا فعلاً، لكن الكلام مطبوع.. إذن هو صحيح..

الحقيقة أنني وجدت هذا التعديل أجمل وقد منحني أفكارًا رائعة..

أما عن (الفريسيين) — وهم اليهود المتحذلقون المتنطعون الذين كانوا يتربصون بالسيد المسيح — فقد تحولوا بمعجزة ما إلى

(الفرنسيين). لم أكتب كلمة (الفريسيين) في حياتي إلا وصارت (الفرنسيين). وهكذا توصلت إلى حقيقة مهمة هي أن السيد المسيح كان محاطًا بالفرنسيين وكانوا يضايقونه فعلاً. يبدو أن الفرنسيين كانوا سمجين في ذلك العصر.

أما عن النظرات النارية فمن الواضح أنني لا أفهم شيئًا، لأنها تتحول إلى (نظرات نازية)، بينما الحزب النازي الرهيب يتحول إلى حزب (ناري) دائمًا.. يبدو أن الحزب الناري كان يخص الصفوة من ضباط هتلر وكان أكثر قسوة وعنصرية..

لي صديق طبيب أديب أخبرني في مرارة إنه حينما يتكلم عن (عظمة القص) تتحول إلى (عظمة القفص).. وحينما يتكلم عن (الهيكل العظمي) تتحول إلى (الهيكل العظيم)، أما عندما يذكر آية من الإنجيل مثل (ماذا ينتفع المرء) فإنها تتحول إلى (ماذا ينفع المرء)..

هكذا وجد السيد المصحح أنه أبرع وأكثر ثقافة من صاحبي.. فهو يعرف الإنجيل أكثر منه برغم أن صاحبي مسيحي، وهو يفهم الطب أكثر منه برغم أن صاحبي طبيب!

هناك قانون من قوانين مورفي يقول: "لو كتبت تنتقد الأخطاء اللغوية في عمل أدبي ما، فلسوف يحتوي مقالك على خطئين لغويين على الأقل!". أنا أعرف أكثر من سواي صدق هذا القانون. أحيانًا تذكر خطأ لغويًا ارتكبه صاحب المقال فيصححه المصحح!.. أي يصحح الخطأ الذي تنشره كمثال للأخطاء!. مثلاً أقول إن الكاتب الفلاني لا يجيد العربية لأنه كتب: "لم أرى أحد هناك".. وينشر المقال فأجد أنني أنتقد الكاتب الذي يقول: "لم أر أحدًا هناك"!. هذا يقنع الناس بأنني مجنون أو متعنت أو كفيف.

من هنا اكتشفت هذه المهنة الجميلة.. مهنة (المغلط اللغوي)، وهو يختلف كثيرًا بالطبع عن المصحح اللغوي. الأخير مهنته أن يتأكد من خلو المقال من الأخطاء، لكن الأول مهنته أن يملأ المقال بها. وهو يمارس عمله بنشاط وحماس وإتقان ولا يخطئ أبدًا. بمعنى أنه لا ينسى شيئًا يمكن أن يجرد الكلام من أي معنى مفهوم. أو للدقة أكثر، مهمته أن يقنع الناس أنني لا أفهم شيئًا.



لقد قابلت بعض هؤلاء فوجدتهم قومًا شديدي الاعتزاز بالنفس.. يؤمنون تمامًا أن الكتاب لا يفقهون شيئًا وراسبون في الشهادة الإعدادية. تكلمه فيصر في كبرياء على رأيه وعلى أنه محق.. ذات مرة قلت لأحدهم: فلنحتكم إلى أحد دارسي اللغة العربية، فقال في فخر: أنا حاصل على الماجستير في اللغة العربية..!

هكذا قبلت رأيه على مضض، وكان علي بعد ذلك أن أقبل سيل الخطابات الذي انهمر على رأسي يتهمني بأنني جاهل لا أفقه شيئًا..

مهنة (المغلط اللغوي) خلاقة تحتاج إلى نشاط وخيال خصب.. وبرغم صعوبتها فإنها تنتشر بالتأكيد في الصحافة والكتب مما يدل على أنها مهنة ذات مستقبل. لا يحتاج الأمر إلى دراسة بل يحتاج إلى خيال وصبر وثقة بالنفس.. كما يحتاج إلى كراهية عميقة للمؤلفين..!

ألا أنقل لك بعض الأفكار المتعة التي تصلني عبر البريد الإلكتروني، والتي لا تخلو من ذكاء ورشاقة.. لهذا اسمح لي مرة أخرى بأن أنتحي جانبًا فلا يكون لي دور سوى الترجمة، لكن لا تعتد هذه الإجازة المتعة من فضلك لأنني عائد في الأسابيع القادمة!

إليك هذه القواعد التي تذكرني بقوانين مورفي الشهيرة:

1 – إذا لم ينتظرك الوقت فلا تقلق.. فقط انتزع البطارية اللعينة من الساعة وتمتع بحياتك!

2 – أن تتوقع أن يعاملك العالم برفق لأنك إنسان طيب، يشبه أن تتوقع من الأسد ألا يلتهمك لأنك نباتي لا تأكل اللحوم.

3 – الجمال لا يقاس بمنظرنا الخارجي أو ما نلبسه من ثياب.. وإنما بما نحن في الداخل. جرب غدًا أن تخرج بلا ثياب لتحظي بإعجاب الناس!

4 – لا تمش كأنك تحكم العالم.. امش كأنك لا تبالي بمن يحكم العالم!

5 – كل امرأة تتمنى أن تجد ابنتها عريسًا أفضل مما وجدته هي، وهي مقتنعة أن ابنها لن يجد زوجة ممتازة كالتي وجدها أبوه!

6 – كان رجلاً طيبًا.. لم تكن له علاقات عاطفية ولم يسبب أية مشاكل.. عندما مات رفضت شركة التأمين أن تدفع المبلغ. قال مستشارها إن من لم يعش لا يمكن أن يموت!

7 – هناك سبل عديدة للانتحار، مثل السم والشنق والقفز من بناية عالية.. لكننا نختار الزواج، وهو طريقة انتحار بطيئة لكنها أكيدة!

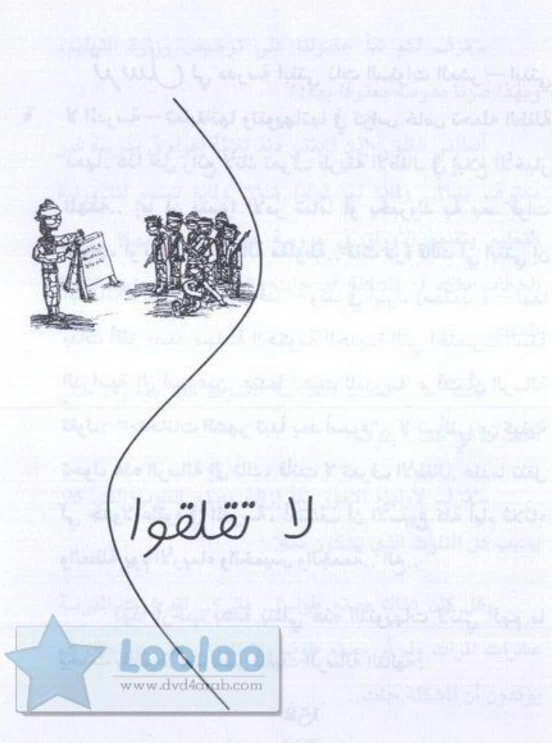
8 – السائقون الثملون يسببون 10٪ من حوادث الطرق.. فهل معنى هذا أن السائقين غير الثملين يسببون 90٪ من حوادث الطرق؟

والآن مع جولة في قاموس المرأة اللغوي الخاص الذي لا يعرفه الرجال:

نعم = لا

لا = نعم





ربما = لا

أنا آسفة = أنت ستكون آسفاً

نحتاج إلى = أنا أريد

افعل ما تريد = سوف تندم بشدة فيما بعد

نحن بحاجة للكلام معًا = أريد أن أشكو

أنا لست متضايقة = أنا سأجن غيظًا أيها الأبله

أنت مفعم بالرجولة = أنت غارق في العرق وتحتاج لحلاقة ذقنك

هذا المطبخ غير مريح = أريد بيتًا جديدًا

سمعت صوتًا غريبا = لاحظت أنك نائم بعمق

هل تحبني؟ = سوف أطلب منك شراء شيء باهظ الثمن

ما مدى حبك لي؟ = أنا ارتكبت مصيبة اليوم

سأكون جاهزة خلال دقيقة = اخلع نعليك وابحث عن مباراة ممتعة في جهاز التلفزيون

يجب أن تتعلم التفاهم = يجب أن توافق على كل كلامي

هل تسمعني؟ = لقد فات الأوان.. انتهى أمرك!

ترسل لي مدرسة ابنتي ذات السنوات العشر – ابنتي لا المدرسة – تعليقاتها وتنويهاتها في كراس خاص تحمله الطفلة معها. هذا حل رائع لأنك تعرف طريقة الأطفال في إبلاغ الأخبار المهمة.. إما أن ينسوا الأمر تمامًا أو يخبروك به بعد فوات الأوان، أو ينقلوا لك رسالة مغلوطة.. ذات مرة قالت لي ابنتي إن امتحانات آخر العام تبدأ غدًا – وكنا في أيلول (سبتمبر) – لهذا بدأت أقلق بصدد سياسة الحكومة الجديدة التي اختصرت السنة الدراسية إلى أسبوعين. عندما ذهبت للمدرسة عرفت أن الرسالة تقول: "امتحانات الشهر تبدأ بعد أسبوع".. لا تسألني عن كيفية تحول هذه الرسالة إلى تلك، فأنت لا تعرف الأطفال. عندما تنقل لي جدولاً علقوه في المدرسة، أكتشف أن الأسبوع كله أيام ثلاثاء والعطلة يوم الأربعاء والخميس والجمعة.. الخ..

لهذا أرحب بشدة بتلقي هذه التنويهات لأنني أفهم ما يحدث بالضبط. منذ شهر تلقيت الرسالة التالية:

-"نزف لكم نبأ حصولنا على ترخيص وزارة التعليم، وبهذا صرنا مدرسة معترفًا بها!"

أصابني القلق.. إذن فابنتي منذ ثلاثة أعوام في مدرسة غير معترف بها؟.. ولماذا لم يقولوا هذا؟. ولماذا تسمح لنا وزارة التعليم بتقديم الأوراق في مدرسة غير معترف بها؟ . لكن الخطاب يؤكد أن المشكلة قد حلت والحمد لله فلا داعي لإثارة المشاكل.

ظلت ابنتي تذهب للمدرسة المعترف بها مؤخرًا، حتى أحضرت لي خطابًا يقول:

-"نزف لأولياء الأمور نبأ إزالة مصنع الطوب الذي كان يسبب كل التلوث الذي تشكون منه"

هل كان هناك مصنع طوب؟.. متى؟.. لقد زرت المدرسة عشرات المرات ولم أر مصنع طوب ولا تلوثًا.. على كل حال هم يؤكدون أن المشكلة حلت..

ظلت ابنتي تذهب للمدرسة المعترف بها التي لم يعد جوها ملوثًا، حتى جاءت تحمل الرسالة التالية:

ـ"لم يعد هناك داع للقلق من حوادث الطرق المتكررة أمام المدرسة، لأننا وضعنا مجموعة من المطبات الصناعية.. هنيئًا لكم"

هل كانت هناك حوادث؟.. يبدو أن ابنتي نجت بمعجزة إذن... كانت في مدرسة ملوثة الجو وغير معترف بها، وكانت الحوادث تدور أمامها بلا انقطاع.. هنيئًا لي أن كل هذا قد زال.. إن الغد يبدو رائعًا..

بعد أيام جاءت الرسالة التالية من المدرسة المتحمسة:

ـ"بخصوص عدم وصول كتب اللغة الفرنسية والرياضيات والعلوم، نحيط علم السادة أولياء الأمور بأننا في سبيلنا لحل هذه المشكلة"

أنا لا أدرس لابنتي لذا هرعت أسأل أمها عن هذا الموضوع، فقالت لي إن الخبر صحيح، لكن لا تقلق لأن المدرسة وعدت بحل هذه المشكلة..

لابد أن هذه المدرسة كانت جهنم منذ أسابيع ثم صارت جنة الفردوس.. المشكلة أنني لم أعرف ولم يقل أحد من قبل إنها

جهنم. هكذا ظلت ابنتي تذهب للمدرسة الآمنة المعترف بها التي لم يعد جوها ملوثًا، والتي ستحل مشكلة الكتب غير الموجودة، حتى جاءت بنبأ جديد:

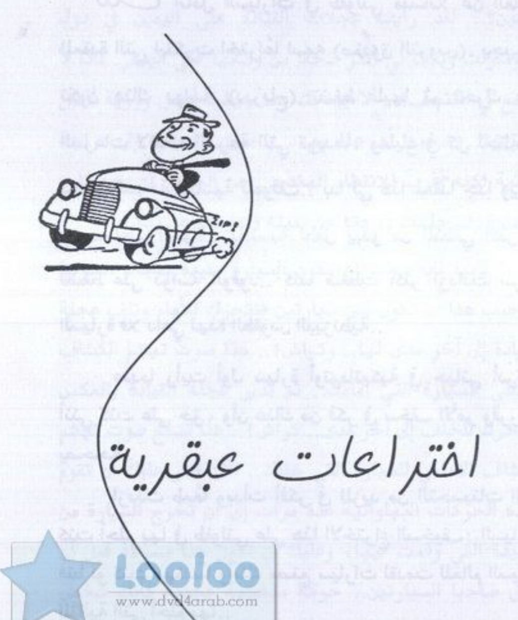
ـ"بصدد ما قيل عن تفشي وباء الجديري في المدرسة، نزف لكم النبأ أننا سنقوم بعمل حملة تطعيم عما قريب، برغم أن الخبر غير صحيح"

سألت ابنتي عما إذا كان هناك وباء جديري في المدرسة، فقالت في فخر إن (هيثم) و(آسر) و(غادة) و(أحمد) و(محيي) أصيبوا بمرض يملأ جسدهم بالبثور لكن المدير يؤكد لهم أن هذا ليس الجديري.. ولماذا لم تقولي هذا؟.. لأنها نسيت.

كان هذا الكلام منذ ثلاثة أيام قبل أن ترتفع حرارتها، ثم يمتلئ جسدها الصغير بالبثور وترقد في الفراش..

الآن أجد نفسي مضطرًا إلى نقلها من هذه المدرسة لأنني أتوقع أن يصلني بعد أسابيع خطاب يقول:

ـ"نؤكد لكم أننا قبضنا على السفاح الذي كان يذبح الأطفال ويصنع منهم مربى.."



أو:

-"نزف لكم أن هيئة الطاقة الذرية تؤكد أن موقع المدرسة لم يعد ملوثًا بالإشعاع النووي بعد انفجار المفاعل المجاور للمدرسة.."

أو:

-"نزف لكم قيام منظمة الصحة العالمية بحذف المدرسة من قائمة المناطق الموبوءة بفيروس إيبولا والحمى الصفراء والإيدز"

دعك من شعوري بأنني غائب عن الوعي وأب غير مسئول لا يعرف شيئًا على الإطلاق. أو ربما قررت أن أبقي ابنتي حيث هي باعتبار المدرسة قد صارت أفضل بكثير مما كانت ولا يمكن أن يحدث شيء جديد بعد هذا كله.. فما رأيك أنت؟

كنت أتأمل السيارات في طفولتي متسائلاً عن العقلية المعقدة التي ابتكرت اختراعًا اسمه (صندوق التروس). يجب أن تكون هناك دواسة (دبرياج) تضغط عليها ثم تحرك عصا السرعات لانتقاء السرعة التي تريدها، وعليك في كل لحظة أن تختار السرعة المناسبة للموقف.. بدا لي هذا معقدًا جدًا ويزيد من مصاعب الحياة.. بالنسبة لطفل يبدو من المنطقي أكثر أن تضغط على دواسة الوقود.. كلما ضغطت أكثر ازدادت سرعة السيارة فلا داعي لهذه الطقوس البيزنطية..

عندما رأيت أول سيارة أوتوماتيكية في حياتي أدركت أنني كنت على حق، وأن هناك من فكر في سخف الأمر وقرر أن يصححه..

ازددت طمعًا وبدأت أفكر في المزيد من التحسينات التي كنت أحلم بها في طفولتي على هذا الاختراع السخيف: السيارة. فقط لو كنت مهندسًا وأملك مصنع سيارات لقدمت للعالم السيارة المثالية التي أحلم بها..

أولاً لماذا يجب أن تكون عجلة القيادة على اليسار أو اليمين؟.. لقد رأيت عجلات القيادة على اليمين في دول الكومنولث وبدت لي أكثر سخفًا من وضعها على اليسار. لماذا لا توضع في المنتصف؟.. ألا يمنحك هذا سيطرة أفضل ورؤية أفضل للطريق؟.. صحيح أن هذا يهدد بتحويل السيارة إلى دراجة ثلاثية لكنه أقرب للانتظام الهندسي. من الجميل أن يقود المرء السيارة وقد جلست زوجته عن يمينه وحبيبته عن يساره.

ثانيًا لماذا يجب أن تكون السيارة مقيدة بمجال الحركة العجيب هذا؟.. تكون بين سيارتين فتتحرك للأمام وتلف عجلة القيادة إلى آخر مدى لها.. وكراش!.. هذا صوت تهشم الكشاف الخلفي للسيارة التي أمامك.. ثم تدير عجلة القيادة بالعكس وتتحرك للخلف إلى آخر مدى.. كراش!.. هنا تسمع صوت تهشم الكشاف الأمامي للسيارة التي خلفك.. الآن صار عليك أن تقوم بهذه الحركات البهلوانية عدة مرات إلى أن تخرج السيارة من المصيدة التي وقعت فيها، وعليك أن تفعل هذا بسرعة قبل أن يصل صاحبا السيارتين.. حركة متخشبة عجيبة كأنك شخص مكسور مغلف بالجبائر يحاول الدخول من باب ضيق..

لماذا لا تزود السيارة برافعة ترفعها من أسفل لتصير فوق مستوى السيارات المحيطة بها؟. تدور على محور الرافعة إلى الاتجاه المطلوب ثم تنزل.. هكذا لا صعوبات ولا إصابات.. بالطبع هذا مريح كذلك في الكارثة الأخرى: أن تتراجع بظهرك لتوقف سيارتك بين سيارتين..

وماذا عن رؤية السيارة من الخارج؟.. ترى على شاشة صورة واضحة لك من أعلى عبر الأقمار الصناعية، فتعرف أين أنت بالضبط وتتجنب ما لا يجب أن تصدمه من سيارات الآخرين.. لا مزيد من العمى وصور المرآة الزائفة التي تجعلك لا تعرف موقعك بالضبط. وماذا عن مصدات التصادم التي تحدث تنافرًا مع السيارات القريبة منك لو دنت أكثر من اللازم؟.. وماذا عن وضع قرص مدمج في ذاكرة السيارة ثم تحدد بالمؤشر المكان الذي تريده، وتترك السيارة تذهب لوجهتها بينما تنام أنت؟.. لا شك إن السيارات الحديثة مزودة بكثير من هذا لكني أحلم بهذه الخدمة لكل سيارة حتى الرخيصة منها.

هل هذا كاف؟.. لا وحياتك.. هناك لوحات السيارة الرقمية التي تتغير بشكل عشوائي كل خمس دقائق.. هكذا لا يظفر بك رجال المرور أبدًا.. ربما تنهض في الصباح عازمًا على أن تجرب رقمًا جديدًا مرحًا اليوم. طبعًا هو اختراع غير قانوني لكن يمكن أن يفرضوا رسمًا سنويًا ضخمًا على صاحب هذه الأرقام يعوضهم عن المخالفات التي لن يحصلوا عليها.

الجهاز الذي يخدع الرادار؟.. قديمة ومخالف للقانون بلا شك..

للأسف اليد قصيرة وخبراتي التكنولوجية ضحلة جدًا، لهذا عرضت بعض أفكاري على صديقي المهندس.. قلت له إنني أحلم بسيارة اقتصادية توفر النقود والوقود.. سهلة القيادة.. لا تلوث الجو.. يمكن أن تحشرها في أي زحام.. غير قابلة للسرقة.. بلا أرقام تضايقك لدى المرور.. قليلة الأعطال جدًا..

فكر صديقي طويلاً وراح يحك لحيته مفكرًا، ثم وعدني بأن يعرض علي تصميمًا مناسبًا خلال يومين. زرته في الموعد

متلهفًا فاقتادني إلى المرآب ليريني تحفته التكنولوجية.. وجدت دراجة هوائية عادية جدًا وعتيقة وصدئة. لكنه أقسم لي أنها لم تتلف مرة واحدة منذ كان في المدرسة الابتدائية..

أخذتها مسرورًا وقد وجدت أنها تحقق ٩٠٪ من أحلامي، ولم ينس أن يعطيني جنزيرًا وقفلاً كي أتأكد من أنها لن تُسرق.. بالفعل تكون الحلول السهلة أمام عيوننا منذ البداية فلا نفطن لها.. إنني لسعيد الحظ حقًا.



أنا الآن أحفظ طباع (مروة) جيدًا.. يؤسفني أن أصفها بالهستيريا، لأن هذا يعيد للأذهان التهمة سيئة السمعة التي لحقت بجنس النساء منذ زمن، حين قيل إن مرض الهستيريا مرض أنثوي، ولهذا اشتق اسمه من لفظة (هستر) أي الرحم.

(مروة) هستيرية بلا شك.. إنها لا تكون نفسها أبدًا.. قابلت فتيات كثيرات مثلها من قبل. أعتقد أنها لا تعرف من هي حقًا.. في كل صباح جديد تمثل دورًا وتتقمصه بشدة، ثم تنساه وتقرر أن تأتي بوجه آخر؛ حتى إنني تذكرت أغنية البيتلز القديمة عن المرأة التي تحتفظ بوجهها في جرة جوار الباب.. تلبس في كل يوم وجهًا جديدًا تقابل به الناس..

اليوم السبت.. (مروة) اليوم عاطفية مخلصة تحب الأطفال والناس والقطط الصغيرة والكلاب.. تسبغ حنانها على العالم وتكرر بلا توقف (يا حرام!). دامعة العينين متأثرة تحتضن ذراعي وترتجف وهي تقول لي: "تصور مدى الجمال في العالم!.. أنا موشكة على البكاء"

اليوم الأحد.. إذن مروة فيلسوفة غامضة.. صامتة تضع نظارة سوداء ولا تتكلم تقريبًا.. تقول لها إنها جميلة فتغمغم: "أم م م م "، أو — لو كنت محظوظًا — تنزع النظارة وتغمض عينها بما يعني الموافقة ثم تضع النظارة ثانية.. تكتب أشياء في كراسها فإذا ألقيت نظرة أغلقت الكراس بسرعة، ثم تمضي الساعات تراقب الغروب ولا تقول شيئًا.. لو أنك قرأت قصة (أبو الهول الذي لا سر له) لأوسكار وايلد لأرحتني من الوصف..

اليوم الاثنين.. مروة اليوم ثرية مغرورة مشمئزة من كل الفقراء القذرين الذين يلوثون هذا العالم.. لا تكف عن الكلام عن (دادي) ورحلتها حول العالم واستكشافها لكهوف الإنديز والأمنية التي تمنتها وهي تقف أمام تلك النافورة في روما.. تلتهم قطعة من الآيس كريم الباهظ الذي ابتعته لها، ثم تقول في اشمئزاز: "كل هذه الأنواع حقيرة جدًا بالمقارنة بما ذقته في مطعم ماكسيم.. إن المرء يتنازل عن أشياء كثيرة لكن التنازل عن ماكسيم أمر لا يطاق.. أمر يفوق التحمل"

الثلاثاء.. هذا هو اليوم الذي تنكش فيه شعرها وتلبس ثيابًا بسيطة وتتحول إلى مناضلة. تحمل تحت إبطها مجموعة من المنشورات الماركسية وتتكلم عن دكتاتورية الطبقة العاملة والبروليتاريا، وتدعوك لوقفة اعتصامية أمام نقابة المحامين.. لو اعتذرت فأنت جبان ومثقف منافق.. إلى متى سنظل سلبيين بهذا الشكل؟.. أقول لها إنني سأكون إيجابيًا وأرفض.. (بالمناسبة هي تدخن في هذا اليوم ويوم الأحد فقط)..

الأربعاء.. إنها اليوم شعبية جدًا.. ترغب في الجلوس على مقهى ، والتهام الفول والطعمية ولحم الراس وشرب الشاي الكشري في مقهى قذر بحي الحسينية.

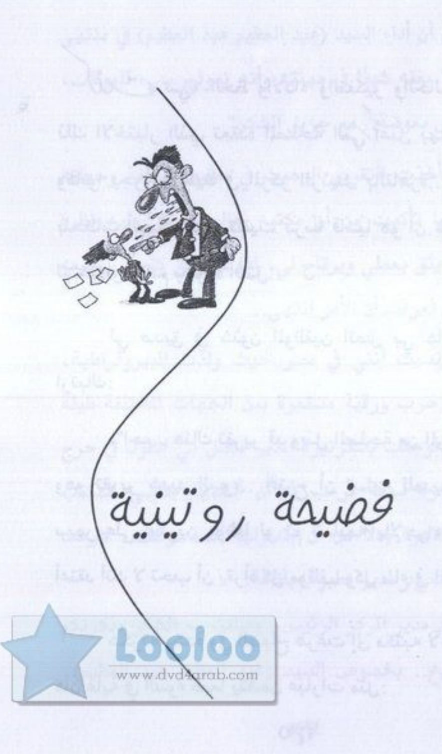
الخميس.. هو يوم الشراسة.. إنها نمرة متوحشة تتشاجر مع كل الناس ومع سائقي سيارات الأجرة ومع باعة الصحف ورجال المرور. الدخان الأسود يتصاعد من شعرها وهي مستعدة لأن تمزقك بأسنانها لو استفززتها.. تقول لك: المرء يتحمل كثيرًا جدًا وقد فاض بي الكيل..

الجمعة.. هو يوم الراحة.. أعتقد أنها لا تذكر من هي حقًا.. لهذا تقضي اليوم كله في الفراش منكوشة الشعر زائغة النظرات ولا تخرج ولا تغسل وجهها.. هناك حكايات عن أخيها الذي دخل غرفتها فأصيب بالخرس بسبب الرعب، وحكايات عن أمها التي تعالج من الاكتئاب بسبب منظرها في ذلك اليوم.. لكني لا أصدق هذه القصص..

لقد سئمت كل هذا التصنع.. كما تقول كتب علم النفس فإن الشخصية الهستيرية ممتازة للعلاقات الاجتماعية، ولديها موهبة فطرية في التمثيل. لكنها بالتأكيد لا تصلح زوجة..

ذهبت لأقول لها إن علينا أن نفسخ الخطبة، لكنه كان يوم سبت.. لهذا بدت لي رقيقة جدًا رومانسية جدًا، وشعرت بأنني حمار كبير ومتوحش.. لا.. لن أجرؤ على أن أجرح مشاعرها..

في المرة الثانية ذهبت لها فوجدت أنه يوم ثلاثاء.. لم تصغ لحرف مما أقول لأنها كانت مشغولة بإرسال برقيات لعدة جهات حكومية تدعوها للإضراب..



اليوم طلبت لقاءها، وعندما وصلت تذكرت أن اليوم هو الخميس.. كانت تنظر لي في توحش وهي تلوك قطعة من اللادن في تحفز, وفي عينيها نظرة توحي بقطع الرقاب.. سألتني عن سبب لقائنا فقلت إنني.. إنني..

ـ"تكلم!.. أنت تتلعثم كطفل أبله متخلف عقليًا.."

ـ"كنت أفكر في..."

خرج الشرر من عينها وعادت تسأل:

ـ"أنت تفكر في ماذا؟"

ـ"في.. في أنني أهيم بك حبًا.. ها ها.. ماذا ظننت؟"

سوف أجد فرصة ما.. ربما يوم الاثنين أو الأربعاء.. ثقوا بهذا.. سوف اكون حازمًا وأنهي علاقتنا بلطف وحكمة. المهم ألا أخطئ اختيار اليوم وإلا حدثت كارثة!!

كنت سيء الحظ والأداء والتفكير والحالة المعنوية في ذلك الاختبار الذي تعقده المصلحة التي أعمل بها للموظفين ، وكانوا يجرونه علينا في المركز الرئيس بالقاهرة.. هكذا مررت بلحظات أليمة ولكني تلقيت درسًا قاسيًا هو أن علي أن استعد للاختبار القادم بصورة أفضل..

لي صديق في شئون الموظفين اتصل بي هاتفيًا وقال في ارتباك:

ـ"احم.. هناك تقرير قد وصل المصلحة من المركز الرئيس، وهو تقرير شديد السوء.. أقترح أن تسلمه للمدير بيدك لأنه سيمر على عشرين موظفًا لو تم تسليمه بالإجراءات المعتادة.. أعتقد أنك لا تحب أن يقرأه كل موظف وكل ساع في المصلحة.."

شكرته بشدة وفي الصباح هرعت إلى مكتبه لآخذ التقرير.. كان غاية في السوء طبعًا يتضمن عبارات مثل:

ـ"تبين أن أداء السيد (عبد العظيم عبد العظيم) في منتهى السوء وأنه لا يفقه شيئًا في مهنته وأنه نموذج سيء للموظف، وأن عقله كعقل بعوضة.. مع جزيل الشكر"

هكذا أخذت التقرير الرهيب في حقيبة مغلقة وحملته للمدير بعد ما تأكدت من أن مكتبه خال، فألقى عليه نظرة عاجلة.. كان يثق بعملي ويرتاح لي، لذا لم يعلق كثيرًا.. وضعه في درج مكتبه فعرفت أن الأمر انتهى..

لكني نسيت أنني في مصر حيث ولدت البيروقراطية، وحيث هناك حرب ورقية مستعرة بين الجهات المختلفة طيلة الوقت. هكذا فوجئت بسكرتيرة المدير تتصل بي لتقول في حرج إن هناك مذكرة سيئة ترغب في أن أسلمها بنفسي للمكتب الرئيس في القاهرة بدلاً من أن يتداولها ألف موظف.. هرعت لمكتبها فوجدت رد المدير مطبوعًا بأناقة:

ـ"السيد مدير المركز الرئيس . وصلتنا مع الشكر مذكرتكم المؤرخة بتاريخ.. بخصوص السيد (عبد العظيم عبد العظيم)،

والتي تفيدنا بأن أداءه في منتهى السوء وأنه لا يفقه شيئًا في مهنته وأنه نموذج سيء للموظف، وأن عقله كعقل بعوضة.. وقد تمت إحاطتنا بهذا مع الشكر"

أخذت الورقة وسافرت بها إلى المركز الرئيس في القاهرة وسلمتها بنفسي، وعدت.. عدت لأجد بانتظاري مذكرة من المركز الرئيس تقول:

ـ"السيد مدير مصلحة (..).. نشكركم على إخبارنا بأنكم تلقيتم تقريرنا الخاص بالسيد (عبد العظيم عبد العظيم)، والذي يفيد بأن أداءه في منتهى السوء وأنه لا يفقه شيئًا في مهنته وأنه نموذج سيء للموظف، وأن عقله كعقل بعوضة.. ونحن نعتمد عليكم في إبلاغ الأقسام الخاصة كل حسب تخصصه بالتقرير مع إخطارنا بأية تغييرات.. وتفضلوا بقبول وافر الشكر"

بصعوبة أنقذت هذا التقرير اللعين ودخلت به إلى المدير، فقرأه بسرعة ثم وضع عليه تأشيرة تقول: "تخطر الأقسام جميعًا بهذا"

حملت صورة من التقرير إلى إدارة المحفوظات، فكتب مدير الإدارة إلى مدير المصلحة:

ـ"السيد مدير مصلحة (..).. نشكركم على إخبارنا بالتقرير الخاص بالسيد (عبد العظيم عبد العظيم)، والذي يفيد بأن أداءه في منتهى السوء وأنه لا يفقه شيئًا في مهنته وأنه نموذج سيء للموظف، وأن عقله كعقل بعوضة.. وسوف نتخذ الإجراءات اللازمة مع الشكر"

هكذا مررت بصور التقرير على كافة أقسام بالمصلحة كي أقلل من عدد الأيدي التي تتعامل معه. وفي النهاية صدر تقرير من مكتب المدير يقول:

ـ"السيد مدير المركز الرئيس . بناء على مذكرتكم المؤرخة بتاريخ.. بخصوص السيد (عبد العظيم عبد العظيم)، والتي تفيدنا بأن أداءه في منتهى السوء وأنه لا يفقه شيئًا في مهنته وأنه نموذج سيء للموظف، وأن عقله كعقل بعوضة.. تمت إحاطة كافة أقسام المصلحة بذلك بناء على تعليماتكم، وتفضلوا بقبول وافر الشكر"

رد المركز الرئيس بمذكرة حرصت على أن استلمها بنفسي قائلاً:

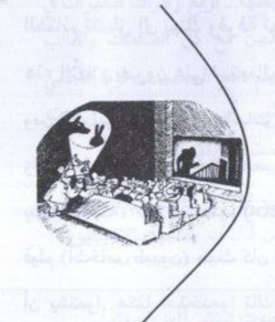
-"نشكركم بشدة على إبلاغ كل أقسام المصلحة بأن أداء السيد (عبد العظيم عبد العظيم) في منتهى السوء وأنه لا يفقه شيئًا في مهنته وأنه نموذج سيء للموظف، وأن عقله كعقل بعوضة.. ونرجو لكم دوام التوفيق"

الآن أنا ألاحق هذا التقرير منذ عام.. ويبدو لي أنه قادر على التوالد ذاتيًا كالبكتريا والفيروسات، وقد وجدت أنني نجحت في تقليل عدد من عرفوا الحقيقة إلى 1600 موظف بدلاً من أن يكونوا 1700..

من الصعب وسط كل هذه البيروقراطية أن يمر تقرير مر الكرام. على إنني سعيد الحظ لأنهم لم يبلغوا الفضائيات بالأمر.. لكني كلما فتحت التلفزيون توقعت أن تقول المذيعة الحسناء: "جاءنا الآن ما يلي.. تبين أن السيد (عبد العظيم عبد العظيم)، له أداء في منتهى السوء ولا يفقه شيئًا في مهنته وهو نموذج سيء

للموظف، وعقله كعقل بعوضة.. نلتقي الآن مع مراسلنا في القاهرة لنعرف التفاصيل.."

لم تأت هذه اللحظة بعد، لهذا ما زلت أعتقد أن (السر في بير)..



درس تربوي

مع تدفق الأفلام الأمريكية عبر الفضائيات، صارت الشتائم تتسلل إلى بيتك وغرفة نومك وغرفة جلوسك، لأن كتاب هذه الأفلام يصرون على استعمال ألفاظ فاحشة بدعوى الواقعية. ومن الغريب أن هناك إحصائيات لهذه الشتائم.. حتى اللحظة ما زال الفيلم الأمريكي (خيال شعبي) هو الأعلى في استعمال لفظة بذيئة معينة، فقد استعملها 269 مرة، يليه في قائمة (الشرف) فيلم (أشخاص طيبون) حيث كان الأبطال من عصابات المافيا ولابد أن يشتموا..هكذا استخدموا تلك اللفظة 265 مرة فقط.. هناك أفلام ابتكرت شتائم جديدة تمامًا لم يلفظها أحد قبل الفيلم مثل لفظة (فوبار) التي اخترعها فيلم (إنقاذ المجند رايان).

لقد اعتدنا هذا على كل حال برغم أن بعض القنوات بدأت تحذف هذه الألفاظ من شريط الصوت. أنا أقبله برغم أن جيل الأطفال الحالي يعتقد أن هذه الألفاظ من مفردات اللغة الإنجليزية المهمة، ويستعملونها أكثر مما يستعملون أداة التعريف The..

تأتي المشكلة عندما اصطحبت ابنتي الصغيرة وصديقاتها إلى السينما لمشاهدة فيلم مصري كوميدي من تلك الأفلام الجديدة التي لا تعلق بذاكرتك ثانية واحدة بعد انتهائها.. أربع زهرات صغيرات في التاسعة يضحكن حتى تدمع عيونهن مع كل الصفعات والمقالب السخيفة على الشاشة، وأنا أتابع الفيلم دامع العينين من فرط إعجابي بنفسي.. أنا أب حقيقي.. أب رائع.. أب يضحي بوقته وراحته النفسية ويشاهد كل هذا الهراء كي تستمتع ابنته..

هنا كان بطل الفيلم يمسك بشاب أجنبي ويوشك على ضربه لأنه عاكس حبيبته، لولا أن قال له الشاب بالإنجليزية: "آي آم جاي..!" يعني (أنا شاذ)..

هنا ارتفع في ظلام السينما صوت ابنتي البريء يقول:

ـ"بابا.. ما معنى (آي آم جاي)؟"

ساد الصمت السينما كلها وحبس كل الناس أنفاسهم انتظارًا لما سأقول. طبعًا فعلت الشيء الوحيد الممكن:

ـ"لم أسمع ما قال."

عاد صوتها الرقيق يسأل بصوت عالٍ:

ـ"قال له (آي آم جاي) فتركه.. ما هو السبب؟"

قلت في حكمة:

ـ"لا أعرف.. ربما لو سمعت لفهمت.."

من جديد عادت أحداث الفيلم تتكرر وعادت أنفاسي تدخل وتخرج في صدري، إلى أن تكرر على الشاشة نفس الموقف حرفيًا.. ومن جديد دوى صوت صديقة ابنتي:

ـ"عمو.. ما معنى (آي آم جاي)؟"

ـ"هه؟"

ـ"لقد قالوها ثانية.."

فكرت لربع ثانية، ثم قلت على الفور:

ـ"معناها أنه مصاب بصداع.. نعم.. البطل لم يضربه لأنه مصاب بصداع.."

هنا قال واحد جالس خلفي في السينما بلهجة معلم الأجيال الذي لا يطيق أن يسمع أحدًا يهذي بما لا يعلم:

ـ"لا مؤاخذة يا أستاذ.. (جاي) ليس معناها أنه مصاب بصداع.. بل معناها....."

استدرت له موشكًا على لكم فمه، وقلت بغلظة:

ـ"بل هي كذلك.. ولتعن بشئونك الخاصة من فضلك"

هنا قالت ابنتي بصوتها الرفيع العالي:

ـ"ما معناها إذن؟.. هذا الرجل الجالس خلفنا يقول إنها لا تعني الصداع"

ـ"سوف أشرح لك فيما بعد.. تابعي الفيلم.. تابعن الفيلم يا بنات وإلا هشمت رءوسكن.. لن تتأثر حبكة الفيلم أو يفسد لو عرفتن معنى كل كلمة.."

ـ"ولكن.."

ـ"ش ش ش ش!!.. لو سمعت كلمة أخرى لغادرت السينما.."

هكذا ظللن يشاهدن الفيلم في تعاسة شاعرات أن الكلمة التي لم يفهمنها هي ذروة الفيلم وحلاوته وأجمل ما قيل فيه. أما أنا فتمنيت لو أحضرت الأخ كاتب السيناريو من عنقه لأسدد له بعض اللكمات.. ألم تقل يا أخ إن الفيلم كوميدي ومناسب للأطفال؟.. إذن لماذا تحشر فيه هذه الألفاظ؟.. سوف أحطم رأسه حتى لو قال لي (آي آم جاي) ألف مرة..

انتهى الفيلم فخرجنا.. كان رأسي ينبض كالطبل وأصاب ضوء الشارع شبكيتي بشلل تام. تحسست رأسي وقلت لابنتي:

ـ"صداع عنيف فعلاً"

هنا رأيتها تفكر قليلاً.. تستعمل الضمائر كما تعلمتها في المدرسة وتحاول تكوين جملة جديدة. ثم صاحت في مرح بصوت سمعه كل الخارجين من السينما:

ـ"بابا.. أنت عندك صداع.. إذن.. يو آر جاي!"

وانتظرت أن أهلل انبهارًا بعبقريتها. طبعًا لن أحكي عما حدث بعد هذا لأن لك خيالاً واسعًا، لكني أقولها بوضوح: أنا لا أصلح أن أكون أبًا متفهمًا حنونًا كما كنت أعتقد في نفسي. يبدو لي أن سياسة ضرب الأطفال مفيدة وتؤتي أكلها في أحيان كثيرة.

الفهرس

مقالات

د.أحمد خالد توفيق



من متجر علاج الاكتئاب، أردنا أن نأتيك بدعابات ظريفة .. أو نكات مضحكة.. أو طرائف مسلية .. أو مُلح مقرظة، فلم نجد للأسف .. لهذا ابتعنا لك نصف كيلو





